حارة الإمام

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING AND DISTRIBUTION

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان : مدينة العبور - الحي السادس فيلا ٨ مدخل ١

هاتف : 01003288596

بريد إلكتروني : Dream.pen92@gmail.com

حارة الإمام

إسراء البراوي

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠١٩م

غلاف: عمار جمال العبد

التصميم الفني: الديوان للتصميم وخدمات النشر

رقم الإيداع : 26116 / 2019

I.S.B.N: 978-977-85623-9-2

جميع حقوق النشر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذن خطي من الدار

حارة الإمام

رواية

إسراء البراوي

DREAM PEN
FOR TRANSLATION & PUBLISHING
AND DISTRIBUTION

إهداء

إلى أمي، بفضل الله ثم دعائك ما كنت هنا.

لأبي، اكتشفت أنني أشبهك كثيرًا ليس بالشكل أو الصفات فقط بل في الكتابة أيضًا.

لإيمان وهدى، لو لم تشجعاني لما وصلت.

أحمد دمت سندي ورفيق دربي.

لمعلمتي الفاضلة، أ. رشا حمدان

وكل من لمست كلماتي قلبه يومًا.

وصديقاتي الجميلات.

وإلى عبدالرحمن محمد، شكرًا لأنك دعمتني كثيرًا وشجعتني على فكرة النشر، أسعد الله قلبك كما أسعدتني.

أخبرتهم أن المعبد سيهلكنا، لكنهم اختاروا الهلاك، فعلوا ما فعله كفار قريش وقالوا هذا ما وجدنا عليه آباءنا، لمن يريد أن يحيى، اهدم المعبد، أما أولئك الذين يعيشون كالأموات، فلينهدم المعبد على رؤوسكم، اقرأ يا صديقي وأحذر أن تكون من ضحايا المعبد.

الفصل الأول

على جزيرة يُطلق عليها «تورمارين»، يعيش قوم آجري، على سفح تلة هنالك معبد يُسمى «إيروس»، نُقش على جدرانه أسلوب حياتهم وطرق العيش المختلفة والقوانين التي تحدد تعاملات الأشخاص فيما بينهم، تمر الأيام و العصور، ليصبح المعبد أيّلا للسقوط، اقترح الشباب تجديده، فنهرهم الكبار و قالوا إنا وجدنا عليه أباءنا، و أعلنوا عليهم حرب ضروس، و أفشوا شائعات عدة، كان منها أن من يفكر في هدم المعبد تحل عليه و على آل بيته لعنة، فيصير منبوذ بين الناس فلا يرضى بنسبه أحد، أجبر الكاهن (آراكزيوس) ابنته (تشيرلين) على الزواج بكهل ذو نفوذ و جاه، فلم تستطع تلك الزهرة العيش في مثل هذه الصحراء الجرداء، و هي التي تنثر الربيع أينما ذهبت فقطعت شريانها، و كتبت بدمائها على الحائط.

«أخبروا أبي أنه أحب المعبد الذي لا يضر و لا ينفع أكثر مني، لا سامح الله أي كاهن أو عجوز كانوا سبب حياتنا التعيسة، و إلى هؤلاء الشباب الصامتين عن الحق كشيطان أخرس، أنتم تحملون الوزر الأكبر، لقد فعلنا فضيلة وسط كم هائل من الرذائل، فرأوا فضيلتنا رذيلة و رأوا رذائلهم فضائل، إلى كل ساكت عن الحق و كل من يسير في ذاك القطيع، اهدموا المعبد قبل أن يهدمه الله فوق رؤوسكم.

أيتها الفتيات لا تجعلوا من أنفسكم جواري، انهضوا من سباتكم قبل أن يقتلكم المعبد، أهدموه قبل أن تحل عليكم لعنة.

إلى كل من الكهنة و العجائز و الساكتين عن الحق سأخبر

اللّه بما فعلتم ، دمي الطاهر عالق بأيديكم القذرة.

عـرف الجميع بأمر ابنة الكاهن، و تركت كلماتها الأخيرة في أنفسـهم أثر عميق، فرممت أرواحهم المتهالكة، و أحيت الشـجاعة فـي قلوبهم، حاول الشـباب هـدم المعبد ، لكن يشـاء اللّه أ لا تُلطخ أيديهـم، انهـدم المعبـد فـوق رؤوس الكهنـة و العجائـز، طلبوا من الفتية إنقاذهم لكن الشبان أتفقوا ألا ينقذوهم، فهم الذين لفوا حول رقابهـم حبل الطاعة مـذ كانوا في المهد ، و أجهضـوا أحلامهم، و وأدوا الحب في صدورهم، أطفَئوا فتيل الإبداع في عقولهم، و اقتَلعوا أعينهم حتى لا يبصروا أخطائهم الجسـيمة، بأي حق يطلبون الحياة! أليسوا هم من أماتوا أنفسهم و هم أحياء؟

وقف الشباب أمام الأنقاض، فإذا بامرأة تخترق الصفوف قائلة:

-لقد أخبرتهم ان المعبد سـينهدم عما قريب، فلقد دعوتُ اللّه ان ينتقم منهم.

اقترب شاب يافع منها و قائلًا:

-لقد دمرونا جميعًا يا اختاه، و حان الوقت لنرمم انفسنا بأنفسنا ، لكن ماذا فعلوا بكِ.

قالت المرأة و الدموع تنهمر من عينيها:

كنـت الثامنة عشـر حين أحببت ديموس، طلـب يدي فرفض أبي و زوجنـي برجل أبغضه، بعد ثلاثـة أعوام مات زوجي، فطلب ديموس يـدي من جديـد ، رفض ابي مرة أخـرى، لما وجد ابـي ديموس مُصر اخبـر الكهنة فقتلوه و قالوا أنه خان قـوم آجري أجمع و خرق قواعد إيروس، حطموا فؤادي كما حطم اللّه أدمغتهم.

انتبه الجميع حين وقف رادو شـاب شـديد البياض أشـقر الشعر، وجهه شاحب على أنقاض المعبد و قال بكل ما أوتي من شجاعة:

حان الوقت ليترك الآباء زمام الأمور لأبنائهم، حان الوقت ليقتنعوا أن الزمان تغير، و تجارة الرقيق صارت محرمة، أيها الآباء بناتكم ليسوا جواري لتبيعهن بثمن بخس و لا أولادكم عبيد لتزوجوهم و تفرحوا بأطفالهم كما يفرح السيد بأولاد عبيده، الزمان تغير فإما أن تواكبوا العصر أو تَتنحوا جانبًا، يكفي ما خربتموه و كفانا هذا الكم الهائل من معدومي الشخصية و المضطربين، لا يدمر أحد الأجيال غير العجائز، حرروا أولادكم من سلاسل العادات، فكوا حبل الطاعة من حول رقابهم، و لا تغرقوهم في بحر الضياع أمسكوا بأيديهم و أذهبوا معًا إلى البر الأمن قبل أن يتركوكم في هذا الخراب وحدكم لينجوا هم، لا تكونوا سبب معاناة فلذات أكبادكم، اعترفوا بخطئكم اليوم قبل أن تموتوا في الغد فيلعنوكم تحت كل سماء، و على كل أرض، و ليكون ما حدث لأجدادكم اليوم عظة لكم، و أقولها لكم اليوم، من لا زال منكم يُقدس المعبد الذي سجننا مذ كنا أجنة في أرحام أمهاتنا، فليدفن نفسه بين أنقاضه، لقد ولّ ذاك الزمان الغابر، أمسكوا بأيدي أولادكم اليوم و أمضوا معهم قُدمًا، و لا تفعلوا بهم ما فعله عجائزنا بنا، فيكون مصيرنا تحت أنقاض معبد أخر.

وضعت (نور) الرواية جانبًا و لسان حالها يقول:

-أخشى أن ينهدم المعبد الذي شيده أجدادي فوق رأسي، أخشى هذا كثيرًا، عليّ تشجيع الشبان على هدم المعبد، لا أريد الموت تحت جدران مكان هو بمثابة سجن لعقول أجيال، تذكرت (محمود)، الذي يكره البلاد و من فيها؛ بسبب تقديسهم لكل ما هو قديم.

لثلاثة أعوام اتخذت من غرفته غرفة لها، اليوم يعود ليعود معه قرع طبول قلبها، لم يكن مجرد قريب، و ما بينهما لم يكن صله

رحم فحسب، بل صله روح، أسكنته قلبها و شيدت حائط عتيق، يناديها طفلتي، لكنها لا تريد أن يناديها سوى حبيبتي، أفاقت من شرودها على صوت والدها يرفع أذان الفجر من المسجد القريب.

تنهدت بأسى، بدأ والدها الصلاة، صلتْ و جلست تسبح ، دخلت (عائشة) ابتسمت لتلك الحالة التي وجدت عليها ابنة أخيها ، جلست على السرير إلى أن انتهت، نظرت لها بحب قائلة:

-محمود سيعود بعد ساعات، أخيرًا سنجتمع بعد كل تلك الأعوام.

- سنجتمع يا عمتي، و نتذكر أيامنا الخوالي.

-لا أريده أن يرحل من جديد.

-تعلمين أن اغترابه هذا أفضل من بقائه معنا ، فهو لن يستطع العيش هنا ، الغريب في وطنه يهون عليه اغترابه يا عمتي.

-أريد أن أرى أبناؤه، لقد صار في الثالثة و الثلاثين من عمره.

-اتركيه و شأنه.

أضافت بتلعثم:

-لعله لازال يحبها.

-تقصدين منال؟

-نعم، لعل الودّ قد عاد بينهما.

-كلا ، أنا أعرف (محمود) جيدًا ، كرامته فوق كل شيء ، سأسأله عن كل شيء حين يعود ، و الآن هيا لنعد الطعام.

انتهوا من إعداد الطعام حين طرقت (ورد) والدة (نور) الباب، فتحت (نور).

رحبت بوالدتها قائلة:

-كيف حالكِ يا أمي لقد اشتقتُ لكِ كثيرًا.

-كأننا لسنا أهلك.

-تعالي يا (ورد)، و إليكِ عن (نور).

-كيف حالكِ يا (عائش)؟

-محمود سيعود و أنتِ تسألين عن حالي.

-أعاده اللّٰه سالمًا.

-آمين.

في الثانية عشر ظهرًا، وصلت سيارة الإمام إلى الحارة.

توقفت أمام بيت (عائشة)، نزل (محمود) من السيارة، شاب أسمر الوجه، وسيم الشكل شعره أسود إلا أن به بضع شُعيرات بيضاء.

وقف أمام منزله ينظر له بشوق، لقد أشتاق لذاك المنزل كثيرً، لكنه إلى أهله أشد شوقًا صاح طفل صغير بأعلى صوته:

-لقد عاد محمود يا قوم!

ابتسم (محمود) لبراءة ذاك الطفل الذي ينتظر الحلوى من (عائش)، تقدم ناحية الباب، طرقه ففتحت (عائش).

كادت أن تفقد وعيها من فرط السعادة، اِرتمت بين أحضانه تبكي، تلك الأعوام التي فرقهم فيها الزمن.

ربت على ظهرها و قال بحنو بالغ:

-يكفي يا أمي أنا أقف أمامك و لم يتغير فيّ شيء.

قالت (نور) بصوت ناعم:

-نعم يا عمتي إنه بخير، شاب شعره فحسب.

ضحك (محمود) فقد عرفها رغم غطاء وجهها.

-نور! لقد كبرتِ.

-الزمان يمر علينا جميعًا يا أخي.

-أين زوجة خالي؟

-ها هي .

سلمت (ورد) على (محمود) فحياها بتحيةٍ طيبة.

قال محمود :

-أين سليم و خديجة؟

أجابته (ورد):

-سليم لا زال نائم، و خديجة أنت أعلم الناس بتفكير وليد.

أومأ محمود براسه متفهمًا ثم قال:

- ألن نأكل أنا جائع.

تناولوا الطعام، رحل الشيخ يوسف بعد الغداء بينما بقى كُلاً من (ورد) و (نور).

كان (محمود) يجلس بالشرفة حين أحضرت له (نور) الشاي، وضعت الشاي على الطاولة و همّت بالخروج فقال:

-منذ متى و أنتِ ترتدين النقاب؟

-مذ رحلتَ.

-أتذكرين أخر مرة جلسنا بها هنا.

أجابت و هي تنظر أرضًا :

-كيف لي أن أنسى.

تبسم و قبل ان يقول:

-كنتِ في السابعة عشر، حاولتِ كثيرًا ثني عن قرار سفري، أخبرتُكِ أنني سأعود يومًا لكني سأصير شخص أخر، و قد صدقتُ بقولي فصرتُ بلا مشاعر.

-و لمَ حدث هذا؟

-أسوأ ما قد يفعله المرء هو أن يقسو على القلوب اللينة، و كان لي قلب لين لكنهم قسوا عليه، فوأدتُ قلبي حتى لا يُقسَى عليه و لا يقسِي على أحد.

-لمَ عدت؟

-عدتُ لأجل (عائش)، ليس لي غيرها و لا لها غيري.

- أ لازلت تحب منال.

- منال!

أضاف ساخرًا أن أفضل ما حدث لي هو انفصالي عنها.

-عمتي ستزوجك.

-آه، كم أكره الزواج بتلك الطريقة، سيأتي اليوم الذي ينهدم فيه معبد العادات على رؤوس الأجداد، لا أدري لمَ لا يقتنعوا أن تلك الطريقة هي أحد أسباب الطلاق، لا تتزوجي بتلك الطريقة طفلتي.

أضاف قائلا:

-ماذا عنك كيف حالك؟ ماذا تدرسين؟

-بخير، أدرس الأدب الفرنسي بجامعة القاهرة.

-رائع، و سليم كيف حاله.

-بخير، كل يوم بمشكلة جديدة، و لا يترك حمزة ابن عمي عمران دقيقة.

-أ لازلتِ تكرهينه؟

-صدقني لست الوحيدة التي تكرهه.

- أنتِ و ودّ أليس كذلك؟

ضحكتْ و قالت:

-نعم.

تنهد قبل أن يقول:

البلاد صارت غريبة عني، كُتب عليّ الاغتراب حتى فيها.

قالت مستفهمة:

- ولكن كيف يغترب المرء في وطنه!

-حين يصير الوطن ملك طبقة معينة، الوظائف لا تقبل إلا خرجين جامعة غير حكومية، يأكلون هم أشهى الطعام و نأكل نحن الفضلات، حين يصير الماء أغلى بكثير من دماء الأبرياء، عندما تصير الراقصة فنانة، و يصبح الرجل ديوثًا؛ ليحصل على لقب المتحضر، حينها نغترب في أوطاننا يا نور.

-أ كرهت البلاد؟

-كرهت ساكنيها.

- أنا و الإمام و (عائش) من ساكنيها.

-لهذا عُدت.

دخل (سليم) الشرفة وظل واقفًا عند الباب برهة من الزمن ثم خرج عن صمته:

-و أنا يا بن العمة.

-سليم! كيف حالك؟

-أفضل منك بكثير أيها العجوز.

ضحكوا جميعًا، قال (محمود) من بين ضحكاته:

-لا زلتَ طفل يا سليم لن تنضج أبدًا.

-طفل! أنا سيد الرجال يا هذا.

وقفت (عائش) بالصالة التي بها باب الشرفة، قالت معلقة على قول (سليم):

-لا تجعلني أتكلم يا سليم فأقول ما لا تحب سماعه.

صمت (سليم) فهو يعرف أن عمته تعلم كل مصائب حتى تلك التي لا يعلم عنها أحد أي شيء.

جاء أصدقاء (محمود): حمزة و مصطفى، جلسوا بإحدى غرف الطابق العلوي، أعدت (نور) الشاي و صعدت، طرقت الباب، ففتح لها سليم، أخذ منها الأكواب من ثم أغلقه.

-لمَ لا نذهب إلى الإسكندرية؟

قالها (حمزة)، فرد (مصطفى):

-أنا لن أستطيع الذهاب؛ لن يصح أن أترك أمي بمفردها.

قال حمزة:

-لن تتركها وحيدة، أجعلها تجلس مع خالتي (عائش).

- لن تقبل أذهبوا بدوني.

قال سليم ساخرًا:

- أمي لن تقبل، و كأنك لا زلتَ في العاشرة.

نظر إليه (مصطفي) بحنق و هو يحاول جاهدًا كظم غيظه، لاحظ (محمود) فقال:

-لا دخل لك يا سليم، ليفعل مصطفى ما يريد.

(سليم) بسخرية:

-بالطبع فهو تلميذ الإمام، و هو دائمًا على صواب، سيأتي اليوم الذي يعلم فيه الجميع أنك منافق.

وقف (مصطفى) و كاد ينقض على (سليم) لكن (محمود) أوقفه قائلًا:

-أرحل يا سليم أرجوك.

-سأرحل و لن أتِ إلا بعد رحيل هذا الأبله.

غادر (سليم) و من خلفه حمزة.

قال (مصطفى) بضيق:

-و اللّه، لولا احترامي للإمام؛ لكنتُ قتلته.

-إنه يغار منك فحسب.

قال مصطفى بتعجب:

-يغار! و مني، لمَ! ما الذي عندي كي يغار؟

- يكره قربك من الإمام ألا تعرف.

-ظننته كبر على هذا.

-لن يكبر أبدًا سيبقى طفلاً أبلهاً.

-دعك منه، أنت كيف حالك في الغربة؟

أجاب (محمود) بعبس:

- أول ما ذهبت شعرت أن روحي غريبة وسط أرواحهم، لكن اليوم روحي ما عادت تشعر بشيء، رخيص القيمة في وطنه لن يكون له قيمة خارجه، و الغريب في وطنه غريب على أي أرض و تحت كل سماء، أن روحي مغتربة منذ فارقني خليل عمري.

-أدعِ له بالرحمة يا (محمود).

-أدعو له، في كل سجدة ، لا سامح اللّه من ظلموه

- هون عليك، لقد ذهب إلى دار الحق.

خانت العبرات (محمود)، مسحها بأنامله المرتعشة، ربَت (مصطفى) على ظهره مُهدئًا.

قال من بين دموعه:

-هلا تركتني وحدي؟

-إذا كان هذا سيُريحك، فسأرحل إذن.

جلس (محمود) على سريره، تناثرت الذكريات حوله، فتذكر ذاك اليوم و كأنه حدث توًا، تذكر (مروان) رفيقه و صديق عمره قد تخرج من الجامعة بتقدير امتياز، لكنه لم يُعين معيد بالكلية لأن العدد الموجود يكفيهم، تقدم لوظيفة مرموقة، و إذا به يُرفض و بعد أسبوع يعرف أن شخصاً ما لا يكاد يفقه شيء قد حصل على الوظيفة؛ لأن لديه المال الذي يؤهله لدفع الرشوة المناسبة، بعدها بيومين أصابته جلطة مات على أثرها، و من يومها و (محمود) يكره البلد و ساكنيها، حين جاءته فرصة عمل بإحدى الدول العربية وافق على الفور و غادر، لا زال يرى دم صديقه المتجلطة تلطخ يد كل مسئول في هذه البلاد.

❖ ❖ ❖

ابنة الإمام ٢

تجلس على الكرسي أمام المرآة، تتحسس تلك الكدمة حول عينها اليسرى، تذكرت قبل ثلاثة عشر عام حين طلب ابن خالتها يدها، رفض أبوها بشدة، لكنها حاربت بكل ما أُتيت من قوة، وقفت في وجهه و قالت بشجاعة:

-أنا أحب وليد يا أبي، لا تبعدني عنه.

-وليد! أنه فاشل، لا أراه بالمسجد إلا يوم العيد، أنه وليد بن خالتكِ رجاء، أنسيتِ بما يشتهر؟ إنه يشتهر بسوء خلقه، أنتِ ابنة الإمام يا خديجة، أنتِ ابنتي البكر، تفعلين هذا بأبيك؟

-أرجوك أفهمني، ربما تراه سيء، لكني أحبه و لن أتركه.

-إذن تتخلين عنا، أنا برئ من ذنبكِ أمام اللّه، تزوجيه يا خديجة، و ستشهد جدران هذا المنزل على بكائك.

تزوجت به، و في ليلتها الأولى بمنزله، قالت:

-عدني يا وليد، ألا تجعل أحد يشمت بي، لقد حاربتُ عائلتي لأجلك، فلا تكن كجندي خان وطنه.

-أعدك ألا أفعل.

تذكرت قبل ساعات حين ترك هاتفه على الطاولة، و دخل المرحاض، وصلته رسالة من فتاة، قرأت خديجة الرسالة و سكين الألم يُقطع نياط قلبها، كتبت له الفتاة:

(متى تتخلص من زوجتك تلك، و نعيش سويًا كما تعاهدنا).

خـرج (وليد) من المرحاض فلما وجدها على حالتها تلك، تنبأ بما حدث.

ما أن وقعت عينيها عليه حتى راحت تصرخ في وجهه:

-من تلك يا وليد؟

-أتتجسسين عليّ؟

-من تلك أخبرني الآن؟

-إليكِ عني، لا تُزعجيني.

جلس على الأيكة و وضع ساق فوق الأخرى.

خديجة بصراخ:

-من هذه؟

-فتاة تعمل معي.

-و التي تعمل معك ستقول لك متى تتخلص من زوجتك!

-لقد مللت منكِ، صرتِ شيء قديم و انا أكره كل قديم.

وقف فأمسكت بتلابيبه قائلة:

-أبي كان محق حين قال أنك لست رجلًا، أنت وضيع و حقير..

قالت بقهر:

-أنت خسيس.

أبعدها عنه بعنف، قائلًا:

-سأريكِ الآن وضاعتي.

لكمها في عينها اليسرى، ثم لطمها على وجهها كال لها اللكمات، نظر إليها و الشرر يتطاير من عينيه، ثم قال:

-أنا سيء لا أنكر هذا بل أفتخر به، لكنكِ لستِ نقية فأنت باختيارك ليّ صرتِ مثلي.

تركها و خرج من المنزل.

أفاقت من تلك الذكرى، قالت من بين دموعها و شهقاتها:

-لمَ فعلت بي هذا يا وليد يشهد الله ما سكن قلبي غيرك، قطعت بيدك أخر حبال الودّ بيننا، كيف أذهب للإمام الآن و ماذا أقول، و أنا التي حاربته بالأمس لأجلك، أشكو إليه خيانتك اليوم!

كنتَ خريف عمري و كنتُ ربيعك، ظننتك تحبني، لكني بظني قتلت روحي، أنا أُخرجك اليوم من حياتي يا وليد ما عدتُ أريدك معي، فراقك سيُفَتتُ فؤادي لكن العيش بفؤادٍ مفتت اهون عليّ من ان أحيا بلا روح و كرامة، أنا ابنة الإمام يا وليد و ابنة الإمام لا يؤذها عاصي.

دخلت الغرفة التي هي مأواها حين تشتد بها أعاصير الألم، دخلت و زادها دخول الغرفة ألمًا على ألمها فالغرفة مخصصة للأطفال و هي لا أطفال لها، و ما هي إلا امرأة وحيدة تخلت عن جميع أهلها و أحبائها و حريتها لأجل رجل واحد ظنته الحياة و ها هو يسلبها كل شيء قد يجعلها على قيد الحياة ظنته ربيع عمرها و لم يكن سوى الخريف الذي جعل زهور فؤادها نذبل.

وضعت رأسها على الوسادة و تمنت ألا تشرق عليها الشمس إلا و هي جثة هامدة، نامت بعد أن جافاها النوم لساعات، لم تستيقظ إلا عندما سمعت صوته يخطو إلى المنزل و سرعان ما نشب صراع بين قلبها و عقلها، فقلبها يحدثها بأنه سيأتي و يعتذر لها، و عقلها يصرخ بها أن تفيق فهو لن يأتي و يعتذر أبدًا، فكيف تعتذر على شيء لا ترى أنه خطأ!

و كالعادة صح ظن عقلها و لم يمر حتى من أمام الغرفة.

وقفت في الصالة حين خرج من غرفة النوم، ألقى عليها نظرة خالية من الندم و قال بنبرة جافة:

- ستذهبين للشيخ يوسف أليس كذلك؟

-و لمن أذهب غيره قل لي لأنهي هذه المهزلة؟

- خذي فقط نسخة من مفاتيح البيت حتى إذا ما ردك أبيك خائبة تجدي مكان تلجئي له .

قالت بنبرة يغزوها الألم و الانكسار :

- لن أعود يا وليد إلى بيتك أبدًا لأنني، لن أكتفي أن ينهرك أبي و يلومك على فعلتك بل سأصارحه برغبتي في الطلاق فلم يعد هنالك شيء لأبقى لأجله، كنت في الماضي أصمت و أكتم الخذي بقلبي لأنني كنت ألحظ الحب في عينيك أو هكذا ظننت، لكن اليوم و بعد أن أصبحت...

بترت جملتها ، عبرة خانتها و نزلت عنوة و لكن لم تمنعها من استكمال جملتها قائلة :

بعد أن أصبحت تحب غيري، لم يعد لي مكان بقلبك و لا ببيتك .

مسحت دموعها ثم أنزلت غطاء وجهها ، حملت حقيبتها و نظرت إليه عله يقول ما يثنيها عن قرارها ، لكنه أثر الصمت فلم تجد خيار غير الذهاب إلي أبيها.

لم يُصيبنا الخذي دومًا ممن أسكناهم قلوبنا؟ ربما لأن الخذي يُصيب القلب لهذا يجب أن نُصاب به عن طريق ساكنيه.

تلحقها الخيبات من كل جانب و لم يعد لها أنيس غير حظها العثر.

نظرت إلى السماء و كل خلية من خلاياها تردد يا الله، وجهت وجهي إليك يا الله، يا من قلبي بين أصبعين من أصابعك، أزل الحزن من قلبي و أبدله فرحًا.

وقفت أمام منزل والدها و هي لا تدري كيف وصلت أصلًا ،

طرقـت البـاب عـدة طرقات قبل أن يصل إلى مسـامعها صـوت أختها الصغرى (نور).

التي سرعان ما فتحت الباب بعد أن علمت هوية الطارق.

فتحـت (نـور) البـاب و علـى أسـارير وجههـا علامـات التعجـب، فخديجـة لا تأتـي في مثل هذه السـاعة إلا إذا حدث أمـر جلل، قالت (نور) بنبرة يشوبها القلق حاولت أن تجعلها عادية:

خديجة! أدخلي هل أنتِ بخير؟

دخلـت خديجة و لم تلفظ حرف واحد، سـارت فـي طريق تحفظه عـن ظهر قلـب حتى وصلـت إلـى وجهتها (غرفـة المكتـب) طرقت عـدة طرقـات قبل أن تقول لهـا (نور): أبي ليس هنا يـا خديجة لا زال بالمسجد ماذا بكِ يا أختاه ؟

رفعـت (خديجـة) غطـاء وجهها و لم تكـن قد رفعتـه حين دخلت المنزل.

حاولت(نـور) كتـم شـهقاتها حيـن رأت وجـه أختهـا و مـا به من كدمات و قالت بعد صمت قصير:

ذاك الملعون وليد أليس كذلك؟

نظـرت خديجـة أرضًا فاقتربت منها (نـور) وضمتها إلى صدرها و هي تقول:

أنا هنا لا تقلقي.

و كأن خديجـة كانـت تحتـاج إلـى ذلـك العناق؛ لتخـرج دموعاً كادت أن تمزق أنياط قلبها الجريح.

خرجـت (ورد) حين سـمعت عويل خديجة فلم تكـن تعلم أنها هي من جاء حتى سمعت صوت نحيبها، خرجت مهرولة تتبع صوت بكاء طفلتها، فهي مهما كبرت لا زالت طفلة في عين أمها، صرخت(ورد)

صرخة مدوية حين رأت وجه ابنتها و ما به من كدمات، و كأن تلك الكدمات بوجهها هي، شعرت بألم يغزو قلبها حين رأت أنهار الدموع المنهمرة من عين ابنتها و لعنت في نفسها وليد و اليوم الذي جاء فيه لتلك الحياة، أبعدت (نور) عن خديجة و تبادلتا الأدوار، و ما إن ارتمت خديجة في حضن أمها حتى صرخت قائلة:

لقد خانني يا أمي، يحادثها و هو جالسًا بجواري ما الذي فعلته له ؟

- و اللّه لأجعلن أباكِ يبعثر كرامته أمامكِ لا تبكي أنه لا يستحقكِ يا بلهاء.

- لا أريد أن أعود إليه يا أمي .

- لن تعودي له أبدًا و أنا سأجعله يعرف كيف يضربكِ ابن رجاء.

خرج سليم و قد استيقظ أخيرًا، قال بصوت ناعس:

-ما الذي فعله ابن رجاء، ألا يأتي من و راء رأسه غير الشر، لعنة اللّه عليه.

رفعت خديجة رأسها فرأى أخاها وجهها فاشتعلت نيران الغضب في رأسه و صرخ في أخته قائلًا:

-هو من فعل بكِ هذا؟ و اللّه لأقطعنه إربًا إربًا، أين هو الآن أخبريني أ هو بالمنزل أم في العمل ؟

و لما صمتت. يا خديجة، ستظلين صامتة، حسنًا إذن أنا سأعرف بطريقتي.

هم بالمغادرة فجاءت الأصوات مختلطة تناديه:

-لا تتهور يا بني، أهدأ يا سليم.

و لما لم تجدان منه إجابة قالت (ورد)ل(نور):

-أتصلي بعمتك لتجعل محمود يلحق بهذا المجنون.

أخذت (نور) هاتفها و اتصلت بعمتها :

-السلام عليكم .

-عليكم السلام و رحمة الله و بركاته ، كيف حالك يا (نور) ؟

-بخير ، عمتي هل (محمود)مستيقظ؟

-نعم ، ماذا حدث، أحدث شيء لوالدكِ؟

-كلا و لكن خديجة تشاجرت مع وليد و ضربها و...

أكملت و كأنها لم تستمع إلى شهقة عمتها :

و حين علم سليم خرج كالمجنون و هو يتوعد لوليد و أبي ليس بالمنزل أجعلي محمود يلحق به قبل أن يصل إلى وليد ، بسرعة يا عمتي فأنتِ أعلم الناس بسليم.

-حسناً لا تخافي ، أين والدكِ؟

-في المسجد أجعلي محمود يمر عليه أيضًا.

أنهت المكالمة و نظرت لولدها الجالس بجوارها ، و علامات الاستفهام متجلية على وجهه ، ثم قالت بنبرة متوترة:

-محمود ، ألحق بسليم الآن أنه ينوي قتل وليد .

- لمَ؟

-لا يوجد وقت للأسئلة الآن سأشرح لك فيما بعد ، ستجده لم يبتعد عن الحارة ، و خالك بالمسجد مرّ عليه بعد أن تجد سليم و لكن لا تخبره بشيء.

و بالفعل قد صح ظنها و وجده (محمود) بسهولة ، فناداه:

-سليم، سليم توقف.

وقف (محمود) أمامه يُعيق طريقه فصرخ (سليم) في وجهه قائلًا :

ابتعد يا (محمود) أنا سأُريه كيف يضرب أختي التي لم يكن

يحلم بزوجة مثلها أبدًا.

-لا تتهور يا سليم، أهدأ و هيا لنعد إلى البيت.

-لن أعود حتى أُقطع ذاك الأحمق إلى أشلاء.

- صدقني أختك أحوج إلى وقوفك بجوارها أكثر من ذهابكِ لتقتل وليد، هيا يا سليم و أستعذ بالله من الشيطان.

سار (سليم) مع (محمود) على مضض، نظر (سليم) مستفهمًا حين وجد بن عمته يسلك طريق غير طريق المنزل.

سليم:

-إلى أين أنت ذاهب ؟

-إلى المسجد لن يحلها سوى الشيخ يوسف.

وصلا إلى المسجد و لم يبحثا كثيرًا عن الشيخ، فلقد كان المسجد فارغ من الناس عدا قلة قليلة تصلي الضحى و الشيخ منهم.

نظر (محمود) إلى (سليم) الذي لازال غاضباً، و قال:

أذهب و توضأ.

قال سليم:

-لمَ؟

-ليذهب عنك هذا الغضب، فالغضب من الشيطان و الشيطان من النار، و ما الذي يطفئ النار غير الماء هكذا وصانا رسولنا الكريم.

أنصاع (سليم) لأمر (محمود) و ذهب إلى حمامات المسجد، بينما كان الشيخ (يوسف) قد فرغ من أداء صلاة الضحى نظر إلى (محمود) ثم ابتسم بعد أن قال أذكار الانتهاء من الصلاة، قال له و لازال مبتسمًا:

- لمْ أراك في صلاة الفجر يا بني أ أنت بخير؟

- نعم نحمد اللّه، ولكن يوم أمس كنت مُتعِب فلم أستيقظ لا أنا و لا أمي.

- ما الذي جاء بك في مثل هذه الساعة إلى المسجد أ جئت لتُصلي الضحى؟

حك (محمود) لحيته قائلًا:

لا، و لكن خالة (ورد) دعتني للفطور معكم و حين لم أجدك بالمنزل و أخبروني أنك هنا جئت لأناديكَ أنا وسليم.

- حقًا و أين هو سليم ؟

-بالحمام و ها هو آتٍ

خرج ثلاثتهم من المسجد، وصلوا إلى البيت، طرقوا الباب ففتحت (نور)، و ما أن رأت أباها حتى تعجبت من السرور الذي يغزو وجهه، أيعقل أن يكون فرحًا؛ لأن خديجة ستنفصل عن وليد! هي تعلم أن أبوها لا يطيق وليد و يكرهه بشدة، لكن ليس لتلك الدرجة، نفضت تلك الفكرة عن رأسها و تنحت جانبًا حتى يدخلوا.

دخلوا إلى المنزل، و حين وصل إلى مسامع الشيخ صوت بكاء (خديجة) تعجب من وجودها في هذا التوقيت فعلم أن ذاك الأبله (وليد) الذي لطالما كرهه فعل شيء رهيب، (فخديجة) لا تشكو منه أبدًا و معنى أن تأتي اليوم و تبكي، أن (وليد) جرحها أو آذاها، سرعان ما تبدلت ملامحه و هو ينظر لـ(نور) و يقول بنبرة جافة:

ما الذي فعله وليد يا نور؟

طأطأت رأسها أرضًا و قالت بارتباك واضح:

أبي لقد ضرب وليد خديجة و...

لم تكن قد أكملت عبارتها حين دخل والدها عليها بسرعة

غريبـة ، لـم تعهده مرن الحركـة هكذا منذ نعومـة أظافرها ، دخل (سليم) خلف والده مباشرةً بينما ظل (محمود) واقفًا في مدخل البيت و كذا (نور).

أخفض (محمود) صوته و هو يقول:

-هل أمي بالداخل؟

- نعم عمتي هنا.

- هل يمكنني الدخول إليها؟

- أكيد يا محمود إنه بيتك.

- شكرًا.

استدارت (نور) لتمضي في طريقها حين أستوقفها (محمود) مرة أخرى قائلًا:

ماذا حدث لخديجة يا نور؟

نظرت إليه و قالت في ثبات:

أحبت من لا يستحقها ، ضحت بنا جميعًا لأجله و ها هي تبكي فعلتها تلك، ليذهب الحب إلى الجحيم إذا كان بهذا السوء.

-إنه سيء جدًا يا صغيرتي، يسلبك كل حواسكِ فلا تدرين إن كان مَنْ أمامكِ صالح أم طالح، يلهو أم جاد.

تنهد قبل أن يكمل قائلًا:

ليرزقكِ الله بمن يتق الله فيك.

- و ليرزقكَ كذلك بمن تريح قلبكَ و تجعله يُزهر من جديد.

نظر في عينيها و قال:

-لقد كبرتِ يا نور حقًا ، و لم تعودي تلك الصغيرة التي تركض نحوي و أنا عائد من الجامعة؛ لأعطيها كيس الحلوى، كبرتِ

وأصبحتِ فتاة يتمناها كل رجل.

نظرت أسفل قدمها و قالت و قد تمكن منها الخجل:

-ألن تدخل؟

تفهم خجلها و ابتسم ابتسامته العذبة التي تخطفُ قلبها دومًا.

دخل (محمود) غرفة الضيوف و ظل جالسًا قرابة الربع ساعة، إلى أن خرج إليه خاله و هو متجهم الوجه و الشرر يتطاير من عينه.

(محمود):

ماذا حدث يا خالي أ كل شيء على ما يرام؟

- ذاك الحقير وليد ضرب خديجة، وجهها مليء بالكدمات، أصر الجميع عليَّ أن أُزوجها به، و الآن الجميع يقول لي ليست الوحيدة التي يضربها زوجها، خفت عليها إن لم أزوجها به لبقيت طوال عمرها عزباء.

تنهد ثم أردف حديثه:

ربما كان عليها الزواج به حتى لا تظن أنه ملاك و أنا الشرير الذي يريد تفريق العشاق، أو ربما أخطأت لأنني لم أتمسك برأيي وقتها، لم أعد أعي هل ما فعلته صواب أم لا.

-لا تفعل هذا بنفسك يا إمام أن أمر اللّٰه نافذ لا محالة، لقد كتب لها أن تتزوج به فلم يستطع اعتراضك أن يمنعها أبدًا.

- أنت محق يا بني ، أستغفر اللّٰه العظيم و أتوب إليه ، ربي لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين.

قال محمود مقترحًا:

- اتصل بخالي (إسماعيل) و أخبره، وحده قادر على فهم وليد و معرفة ما ينويه.

- و هل سيستطيع أن يأتي هو الآخر، أليس هو أيضًا قلبه مكلوم، أيستطيع أن يأتي إلى الحارة من جديد و لا يجدها تقف عند شجرة التوت؟

المشـكلة يـا بُنـي أنكـم تحبـون مـن أعمـاق قلوبكـم مـن لم يُدخلوكم قلوبهم يومًا.

- أنت محق يا خالي، فلو كانوا أدخلونا أفئدتهم لما هانت عليهم قلوبنا و ما هجروا حنايانا و تركوها خاوية على عروشها .

- أسأل اللّه أن يُريح قلوبكم يا بني .

- أمين.

- سأتصل بـ(إسماعيل) و أخبره بما حدث، أليس هو من توسط له.

- أفعل ما تراه يا خالي.

أخذ (يوسف) الهاتف و اتصل بـ(إسماعيل)، أنهي المكالمة و قد اتفقا أنهما سيلتقيان غدًا في الثالثة مساءً.

قمر

وقفت شامخة أمام المرآة تهندم حجابها ، امرأة في الثانية و الأربعين من عمرها ، بدأت التجاعيد في الظهور على هذا الوجه الجميل ، عيناها السوداويتان تحملان من الحزن ما تحملان ، شفاهها الفاتنة تلفت انتباه من يحادثها دومًا ، إذا كان لكل منا نصيب من اسمه فهي مثل القمر في غموضه ، من بعيد تراه جميلاً و حين تقترب ترى الشروخ و الكسور ، كان يقول لها قمري ، فتخبره بأنه شمسها ، و أن الضوء المنبعث منها ما هو إلا نوره ، ألا يستمد القمر نوره من الشمس؟ ابتسمت حين تذكرت كلماته اثنين وعشرون عام و تحبه كل يوم أكثر من قبل ، كل يوم تفكر : ماذا فعل بنا الزمن هل لا زال يذكرها؟ هل مازال قلبه ينبض حين ينطق أحدٌ اسمها؟ هل تزوج؟ و كم طفل لديه الأن؟ من هي زوجته؟ و هل يحبها؟

كل يوم تتمنى لو أنها كرهته قبل الفراق ، لو أنه كان خائنًا فتعاقب قلبها على الحب الذي تحمله له ، تعنف ذاكرتها التي مازال عالقًا بها ، تمنت لو نكس عهده ، لو أعطاها سببًا لتعيش من بعده ، و لا تظل تبكي على أطلال قلبها الجريح ، لو أن أي سبب أخر فرق بينهما غير أهلها لعادت إليه ركضًا و ارتمت بين أحضانه و بكت كل لحظة كانت فيها بعيدة عنه ، إلا أنهم أهلها الذين ربوها ، فهل جزاء ما فعلوه معها أن تجلب لهم العار؟

تذكرت حين ذهبت إليه و اقترحت عليه أن تهرب معه.

في الثانية و العشرين من عمرها ، وقفت أمامه و الدموع لا زالت عالقة بأهدابها ، قالت بصوت منخفض:

- لنهرب سويًا أملك بعض الأموال يمكن أن ندبر أمورنا بها.

- ما هذا الهراء يا قمر أعيش عمري كله بعيدًا عنكِ، و لا أعيش معك يوم واحد و لا أتقي اللّه فيكِ، لا لن أفعل هذا.

- ألم تعد تحبني؟

- ما هذا الهراء، أني و اللّه لن أحب سواكِ، إلا أنني أخاف اللّه يا قمر و لا أريد أن أعصي اللّه فيكِ، و هم أهلكِ إنهم أولى بكِ مني، لن أستطيع أن أخون أباكِ و أخاكِ سالم أبدًا، نحن عشرة عمر يا عزيزتي و لن أخون العشرة أبدًا.

- أنت تتخلى عني.

- ستعرفين ذات يوم أنني كنتُ على حق و أنني أخاف على سمعتكِ، و أخشى مما سيقوله الناس عنكِ أكثر مما سيقولونه عني، ستعرفين يومًا ما يا حبيبتي أنني بفعلتي هذه أهيم بك.

قالت بأسى:

- سنسافر غدًا إلى سوهاج من أجل زواج سالم.

دمعت عينها قبل أن تكمل:

-و لن نعود مرة أخرى إلى هنا.

- سأتي إليكم و أخطبكِ هناك.

- لن تكون إلا المرة الحادية عشر التي يرفضك فيها أبي.

- لتكن ما تكونه لن أتركِ تُزفين إلى غيري أبدًا.

- هل ستذكرني حتى بعد الرحيل؟

- أنا لن أنساكِ لأذكركِ يا قمر.

- عدني إذا تزوجت امرأة غيري أن تحبها كما أحببتني.

ابتلع غصته قبل أن يسألها :

-و لمَ هذا الآن، لن أتزوج غيرك يا قمر.

وضعت يدها على فمه و قالت و قد اختلط صوتها بدموعها:

-لا أريد من الدنيا غيرك، و إن لم تكن نصيبي على الأقل كن سعيد.

- لن أتزوج إلا بكِ.

- و أنا لن أكون زوج غيرك أبدًا.

أفاقت من تلك الذكرى، مسحت عبرة خانتها، و قفزت من على سور عينها حين سمعت صوت قُدوم شخص ما.

جاءها صوت تعرفه جيدًا.

- كنت أعلم أنني سأجدك ما زلتِ بغرفتك.

- اِستيقظتِ اليوم باكرًا على غير عادتكِ!

- أنا لم أنم من الأساس.

- لما يا بنتي؟

-اليوم سأطلع على تنسيق الثانوية و في أي كلية سأكون وبأي جامعة وفي أي محافظة، الاحتمال الأكبر أنه بالقاهرة، أبي و جدي...

- لا تخافي من شيء، أنا سأتحدث معهم و سيكون كل شيء على ما يرام.

- لا أعلم بدون وجودكِ في حياتي ماذا كنت سأفعل؟

عانقتها ثم خرجت (شهد) من الغرفة ، جلست (قمر) على طرف سريرها تحدث نفسها قائلة :

و هل ستسمحين يا قمر أن يحطموا ابنتكِ كما فعلوا معكِ -صحيح أنها لم تسكن رحمها يومًا- و لكنها ابنتها، ألم تحملها

بيـن يدهـا قبل أن تفعل أمها -رحمها اللّه-؟ ألم تمسـد شـعرها و هي نائمة آلاف المرات؟ ألم تأتيها باكية لأن دميتها ضائعة؟

أمـا كانت سـتنجب فتاة في نفس عمرها لـو تزوجت؟ لقد تأملت أن تنجـب منه طفلًا تشـيب بجـواره، يزورها ملـك الموت و هي تضع رأسها على كتفه، لن تسمح لهم أن يحطموا حلم فتاتها كما حطموا حُلمهـا، سـتحارب و تخـوض المعارك لأجل طفلتها، لن تستسـلم في هذه الحرب الضروس كما استسلمت في حربها.

و قفـت و قـد حسـمت أمرهـا و عزمت علـى مقاومة كل شـيء و شخص يحول بين (شهد) و حُلمها.

بعـد تنـاول الفطور، مشـت بخطوات متـرددة باتجـاه أبيها تحمل القهـوة، وضعـت القهوة علـى الطاولة، كان كُـلًا مـن أخيها و أبيها يجلسـان في حديقة المنزل أعطت لأباهـا فنجانه و نظرت إليه نظرة خاطفـة علـم من خلالها أن ابنتـه تحمل في صدرهـا أحاديث كثيرة تخاف أن تبوح بها؛ لأن البوح عاقبته كبيرة هكذا اعتادت فأبسـط عقاب صفعة تدمي.قال لها بصوته الخشن :

ماذا تريدين؟

نظـر لها أخوها بشـفقة - كالعـادة - فمن يقف أمـام هذا الرجل يستحق أن يُشفق عليه.

قالـت قمر بصـوت مرتجف: أبي شـهد تريد الذهاب إلـى القاهرة لتدرس الطب.

أكملت بعد أن دمعت عينها :

-إن هذا حُلمها الوحيد لا ترفض أرجوك.

كادت تكمل و تقول له لا تفعل بها ما فعلته بي و لكنها صمتت.

نظـر أبوها إليها و قد شـعر أن دوره في الحيـاة هو تحطيم أحلام

أحبائه ثم قال:

-الرأي رأي والدها.

نظر (سالم) إلى أبيه و قال:

-كيف هذا و أنت كبيرنا يا أبي.

- لكنها ابنتك افعل معها ما تُريد.

نظر(سالم) إلى ساعة يده و نهض قائلًا:

حين أعود من العمل أجيبكم إن شاء الله لأنني الآن سأتأخر على العمل.

كانت الحادية عشر حين نزلت (شهد) تبحث عن عمتها ، فحين وجدتها قالت لها بلهفة:

ماذا قالا لكِ؟

- جدك قال أن الرأي رأي والدك و والدك قال سيخبرنا حين يعود من العمل.

- لقد تأكدتُ أن جامعتي ستكون بالقاهرة إذا لم يوافق أبي، لن أستطيع الذهاب لأي جامعة أخرى كذلك.

- لا تخافي أستطيع التكلم مع والدكِ مادام الأمر مُقتصر عليه دون جدك.

كان يجلس في الحديقة يتظاهر بأنه يقرأ الصحيفة و ذهنه لم يكن شاردًا سوى فيها و ما فعله بها ، كانت في الثانية و العشرين حين طرق بابهم ذاك العريس رفضه بشدة و صرخ في وجهه قائلًا:

أ لم تكن أختك سبباً وفاة ابني البكر محمد ، أ لم ترفضه لتتزوج بذلك الأشقر و في النهاية تزوجت هي و عاشت سعيدة و ابني مات بحسرته.

لم ينصت لأحد حينها لم ينصت إليهم حين قالوا له أن الأمر مر عليه ثلاثة عشر عام، و أن الأمر كله قضاء و قدر، لم يستمع إليهم

و أخذها ليحضر زفاف ابنه لم تمر سوى أيام و خُطبت هي الأخرى.

تنهَّد لتلك الذكرى الحزينة ثم ترك الصحيفة و سار يتجول في الحديقة تحت ظلال أشجارها.

ظلّ طوال اليوم يفكر فيها أ يكسرها و يحطم قلبها كما فعل والده بأخته أم يجعلها تذهب إلى القاهرة للمرة الأولى بمفردها؟

ظلّ مشتتاً و لا يعرف بم سيُجيب أخته.

دخل المنزل و قد أنهكه التعب وجد أخته و قد أعدت العشاء، تناول بعض اللُقيمات و نهض، بعد فترة قصيرة وجد أخته تدلف إلى غرفته و هي تحمل بين يدها كوب عصير.

جلست قبالته ثم نظرت إليه نظرة يعرفها و قالت:

لا تفعل هذا بها ، لا تجعل الحزن وطنها و الفرح غربتها لا تحطم فؤادها يا أخي ، لا تجعلها مثلي خاسرة لحلمها.

قال ببرود:

لا أحد يموت حينما يخسر حلمه.

- صحيح لا نموت و لكن نعيش كالأموات و هذا أسوأ لو تدري.

- لو كان كما تقولين إذن جميعنا نحيا كالأموات.

- البعض يستطيع تخطي الأمر و البعض الأخر لا ، و هي تشبهني كما تعلم و أنا لم أتخطى الأمر كما تعلم أيضًا.

قالت كلماتها الأخيرة و نهضت.

ظل طوال الليل يفكر فيما قالته أخته قبل أن ينهكه التفكير فينام و يحلم بذلك الحلم الغريب، شاهدها ترتدي فستان بلون السماء، عيونها حزينة و قفت أمامه و أمسكت كفه و قالت:

-أ لم تقل لي أنك ستفعل لها ما تريده و هي تريد دراسة الطب لا تخذلها يا سالم، إن كنت تحبني لا تخذلها.

استيقظ على صوت آذان الفجر وجد بعض الدموع على خده، مسحها و قام ليتوضأ.

في الصباح حين كان الجميع جالسين قال (سالم):

-متى عليك الذهاب إلى القاهرة يا شهد؟

نظرت إليه بدهشة مختلطة بالفرح ثم قالت:

-بعد أسبوعين يا أبي.

كانت قمر سعيدة، لأن أخاها وافق و حين كان خارج من المنزل للعمل ركضت (قمر) خلفه وراحت تنادي عليه، فوقف قائلًا:

-خيراً يا قمر ماذا تُريدين؟

- أريد أن أشكرك؛ لأنك وافقت.

- أشكري هبة.

قالت مستفهمة:

-هبة ؟!

- نعم، لقد زارتني ليلة البارحة.

دمعت عيناها و هي تقول:

-يرحمها الله، أنا أعلم أنك لم تحب سواها، لكن فرح زوجتك أيضًا لا تظهر امامها حزنك على هبة؛ كي لا تغار فهي أيضًا لم تحب سواك، أعدها إلى المنزل، لا يصح أن تبقى عند عمتي كل هذه المدة، أ لم تشتق لمحمد و ياسر على الأقل؟

- إن شاء الله سأحضرها اليوم و أنا عائد .

مر أسبوع بسرعة و قبل ذهاب (شهد) بأيام نادت (قمر) ابنة أخيها و قالت لها بتردد:

-اليوم أخبركِ سري يا شهد.

نظرت لها (شهد) في فضول قائلة:

أسأل الله أن يجعلني أهلًا لحمل سركِ يا عمتي.

قامت لتحضر صندوق صغير قديم و تخرج منه صورة لشاب وسيم، نظرت إلي الصورة و صارت تبكي، قالت و قد أختلط صوتها مع الدموع:

حين تذهبين إلى القاهرة و إلى منزلنا القديم خاصة لا تتعجبي حين يستوقفكِ هذا الرجل الذي بالصورة، أكيد شَابَ شعره البني لكنني متأكدة أنه لازال وسيماً، لا تخافي ليس مجنونا أو عقله ذاهب، سيقول لكِ ما درجة قرابتكِ بقمر قولي له ابنتها و أمضي في طريقك.

- لا أفهم شيء يا عمتي.

- لا أريدكِ أن تفهمي شيء، أريدك أن تقولي لهذا الرجل أنك ابنتي إذا أستوقفكِ.

- ما اسمه.

- هو سيخبركِ.

❖ ❖ ❖

وليد وخديجة

بينمـا هم يتناولون الغداء في منزل (يوسـف) رن الهاتف معلنًا عن وصول رسالة من (إسماعيل) محتواها (لقد تحدثت مع وليد البارحة و قال لي أنه سيأتي لك الليلة في السابعة، و أسف لن أستطيع الحضور لأنني مسافر من أجل العمل، و حين أعود سأتي إن شاء اللّٰه).

وضع الهاتف على الطاولة من جديد ، نظر له (محمود) مستفهمًا قبل ان يسأله:

-ماذا هنالك يا خالي؟

- لا شيء يا بني.

- هل كان هذا خالي (إسماعيل)؟

- نعم يقول أن وليد سيأتي في السابعة أي بعد أربعة ساعات .

- أعلـم أن وجـودي لن يكون مرغوب فيـه و لكني أريد أن أبقى حتى لا يُجن سليم أو يُسيء لك وليد.

- طوال عمرك تفهمني يا محمود و كأنك ابني الذي من صُلبي.

ابتسم محمود و قال مداعبًا خاله:

-و لكني أوسم من سليم.

ضحك الشيخ و قال:

-وسامة الرجل يا بني ليست في شكله أبدًا بل في دينه و خلقه.

- محق دومًا يا خالي، و الآن أخبرني ماذا ستفعل مع وليد؟

-سأتفق معه على الطلاق ألا ترى ما فعله بخديجة؟

- كلا رأيـت، لكـن مـا رأيـك أن تسـأل خديجة عـن رأيها في

الرجـوع لعلها تريـد العودة و هي أعلـم بزوجها و تقلبـات مزاجه منا ، ربما يحادث تلك الفتاة ليتسلى.

- يتسلى! و زوجته؛ الخطأ خطئي أنا.

- أنا لا أبرر له شيء ، لكن خديجة تحبه ، فسلها هي.

بعـد تنـاول الغداء ، توجه الشـيخ إلى غرفة ابنته ، وجدها جالسـة على السرير تبكي و (نور) تحتضنها بقوة قال الشيخ بنبرة عطوفة :

أ ما كفاكِ بكاء! إنه لا يستحقكِ يا حبة قلبي.

قالت بصوت مختلط بالدموع:

-أنا لا أبكي فراقه يا أبي ، أنا أبكي سنوات عمري التي ضاعت و أنا لا أعيش سوى له.

قال يوسف:

-هل لكِ أن تتركينا قليلًا.

انسحبت (نور) بدون أن تلفظ ببنت شفى.

وقف يوسف أمام خديجة و قال بنبرة لينة :

وليد سيأتي الليلة إذا طلب العفو أ تعفين و إن طلب العودة تعودين؟

قالت بنبرة مهزوزة :

لا ،لا أقبل أبدًا يا أبي.

مسد شعرها و قال بنبرة حانية :

-لكنك لم تحبي سواه.

- و لكنـه لـم يحبنـي أنه لا يحب سـوى تلـك الفتاة التـي يحادثها ليـل نهـار و يريد الزواج بها ، فـي كل مرة يهيننني فيها يكون عزائي الوحيد حبه ليَّ ، و اليوم و لم يعد له عندي شفيع لن أعود.

كان يوسف سعيد بعد حديثه مع ابنته.

ليس لأنها ستصير مطلقة بل لأنها ستتخلص من ذاك الوليد الذي لا يصلح لشيء سوى لمغازلة الساقطات.

في السابعة دق أحدهم جرس بيت يوسف، حين سمع سليم صوت الجرس فتحه فإذا برجل أسمر طويل و نحيف يقف أمام المنزل.

سليم بنبرة ساخرة:

-تفضل؛ يا أستاذ وليد.

- كبرت يا سليم و صرت تستطيع التكلم.

أمسك (سليم) بتلابيب (وليد) و كاد يضربه لولا صوت أبيه الذي منعه

جاء صوت الشيخ (يوسف) لابنه كجرس إنذار فتركه و تنحى جانبًا ليدخل.

حين دخل وليد رأى (محمود) و لم يكن، رآه من قبل نظر إليه بحقد دفين، قطع نظرته تلك صوت الشيخ يقول لهم:

هيا بنا إلى غرفة المكتب.

دخلوا جميعًا الغرفة كان (سليم) و (محمود) يجلسان متجاورين على أريكة و على الأريكة المقابلة لهم يجلس كُلًا من وليد و الشيخ يوسف.

بدأ الشيخ الحديث قائلًا:

-هل يصح يا بني ما فعلته بخديجة؟

صرخ (سليم) قائلًا:

-و هل مثله يعرف ما يصح و ما لا يصح، إنه ليس رجل فالرجل ليس بقوته إنما برحمته.

فصرخ والده في وجه قائلًا:

-أخرج يا سليم الآن.

خرج (سليم) غاضبًا و أغلق باب الغرفة بقوة، وقفت (نور) أمام باب غرفة المكتب طرقت عدة طرقات خفيفة، ففتح لها (محمود) و أخذ أكواب الشاي من بين يديها.

قال يوسف:

-أسمع يا وليد إما أن تقطع علاقتك بتلك المرأة و تعتذر لخديجة اعتذار تقبله و ترضاه و إما فراق بالمعروف.

أجاب و ليد:

-أريد التحدث إلى خديجة بعد إذنك يا إمام.

- أخبرني برأيك أولًا.

- أنا تزوجت من تلك المرأة.

قال (محمود) بنبرة حاول أن يجعلها هادئة:

-و ما الذي جاء بك ما دمت تزوجت؟

- لا دخل لك يا محمود، أنا أعلم جيدًا أنك تكرهني فلا تتدخل.

قال (يوسف):

حسنًا يا بني، ستطلقها بالمعروف أو أجعلك تلعق أرضية المحاكم.

- سأطلقها يا إمام و لكن أجعلني أتكلم معها.

- لِننهي هذا الهراء.

صعد الإمام إلى (خديجة)، طرق الباب عدت طرقات و دخل بعد أن أذنت له.

- و ليد بالأسفل يا خديجة يريد الحديث معكِ.

قالت بلهفة واضحة:

- هل طلب العفو؟

- كلا ، لقد تزوج.

جلست بعدما كانت واقفة و نظرت إلى أبيها و هي باكية و قالت:

- كيف يتزوج بغيري ألم يعد يحبني؟

- و هل مثله يعرف الحب يا ابنتي؟ دعيه و شأنه و اتركي الظلمات تُضل قلبه كما تشاء.

- لو طلب العفو و اللّه، لَكنتُ أعفو و أصفح.

- أمسحي دموعكِ تلك، و أخرجي إليه و أريه كيف تكون ابنة الإمام اجعليه يعلم أن ابنة الإمام لا يحطم فؤادها فراق رجل.

- ابق بجواري دائمًا يا أبي و لا تتركني.

- و منذ متى و أنا أتركك، منذ متى و الإمام يتخلى عن أحد يا ابنة الإمام؟

عانقها و ظل بجوارها حتى ارتدت إسدال الصلاة و النقاب و أمسك بيدها و نزلا.

دخلا غرفة المكتب كان و ليد ينظر إلى الأرض شاردًا فيها حين دلفا وقع نظرها عليه،

صحيح جرحها لكنها لم تحب سواه، لطالما أذاها إلا أنها تُعِدُ كل شيء منه جميل، حتى الأذى، ليست حمقاء كما يظن الجميع و لكنها أحبت بصدق في زمن صار الحب فيه زيف.

أستأذن (محمود) و خرج فرفعت النقاب عن وجهها.

نظر لها، حسناء طويلة بشرتها بيضاء كالثلج و عيونها لم تكن إلا حدقتان من الزيتون، ملامحها رقيقة لا يشوه وجهها إلا تلك الكدمة عند عينها اليسرى، شعر بغصة في قلبه حين تذكر أنه السبب.

الإمام بجدية بالغة:

-سـأخرج؛ لأتركـكما تتحدثـان و لـكن إذا رفعت صوتك عليها سأقتلك.

- صرت عنيفًا يا إمام.

- العنيفون هم من يردعون القذرين.

خـرج و تركـهمـا ، ظـل ينظـر إليها و لا يعـرف من أيـن يبدأ حتى بادرته هي قائلة:

-كيف حالك يا وليد؟

- لا خير في الحياة بدونكِ.

قالت ساخرة:

-الخير كل الخير في العروس الجديدة.

نظر إليها و قال:

-تعلمين مكانتك عندي.

استعبرت و قالت:

- بالطبـع أعلم أننـي زوجتك، قطعة من الأثاث فـي منزلك، تفعل بها ما تشاء.

- لقد أحببتها و لا تسألي كيف.

- لن أسأل، ماذا تريد الآن؟

- لا شيء غير النظر إلى عيونك قبل أن تصير محرمة عليَّ.

- ستطلقني؟

قال في ثبات:

-أليس هذا ما يريده والدك؟

لآن ولكن قبل كل شيء شكرًا لأنك كنت بحياتي يومًا.

أخذت تبكي فجلس بجوارها و عانقها، ظلت تضربه على صدره

وتقول صارخة :

لمَ يا وليد لمَ؟

ظل يضمها إلى صدره أكثر دفعته عنها و قالت:

أكرهك و سأكره قلبي بك، سأخرجك من قلبي كما أخرجتني من حياتك.

خرجت وصفقت الباب خلفها و تركت النيران الحيرة تقلبه على جنبيه.

دخل الشيخ و قال له:

-سأحدثك حين أحدد يوما لنُنهي إجراءات الطلاق.

- حسنًا و لكن من الأفضل أن يكون الموعد هذا الأسبوع؛ لأن الأسبوع القادم سأسافر.

- حسنًا ليكن يوم الجمعة.

- إذا، لنلتقي بعد غد.

غادر (وليد) و ظلت (خديجة)بغرفتها وحيدة تبكي قلبها و عمرها، لكن الدموع لا تجعل الجروح تلتئم أو تندمل بل تزيدها آلمًا و اتساعًا وعمقًا.

صعدت (نور) إلى غرفتها، فوجدت شقيقتها تجلس على السرير و قد وضعت رأسها بين كفيها.

حين رفعت خديجة رأسها تمكنت (نور) من رؤية تلك السيول من الدموع، جلست بجوارها في حزن و أسى أمسكت بيد أختها قائلة:

-يكفي يا خديجة حرامٌ عليكِ نفسكِ.

قالت بصوت يتخلله البكاء:

-مهما حدث إياك و الزواج من رجل تحبينه أكثر مما يحبكِ؛

لأنـه حين يتركك لـن تؤلمك كرامتك و لن تنجرح أنوثتك فقط؛ بل سينفطر فؤادكِ يا (نور)، إياكِ و الزواج من رجل يرفضه أبوكِ.

هـأنذا ضحيت بكل شـيء و ضربت بنصائح أبي عرض الحائط، ومَنْ ضحيت لأجله تخلى عني و تركني وحيدة أبكي قلبي، أنوثتي، كرامتي و سـنين عُمري آه واقلباه... واقلباه ... أشـعر بقلبي يؤلمني يا أختاه.

عانقتها (نور) و ظلت تبكي بكاء أختها.

- لا تبكي يا خديجة، لقد غادر لكننا جميعًا حولك.

- ما يؤلمني أن قلبي اللعين لا يهمه أنكم جميعًا ها هنا، بل يهمه وجود ذاك الأبله.

صمتت برهة ثم أكملت:

-الحـب ثقب أسـود يبتلع ما حوله، لا تقعي بـه هربي إذا صادفته يومًا.

- يكفي يا خديجة هيا لننام.

مسـحت دموعهـا و تظاهرت بالنوم حتى نامت (نور) و تسـللت هي من الفراش، توضأت و وقفت بين يدي خالقها، حين سـجدت بكت قائلة:

-و أنت سبحانك تعلم يا اللّه و هم لا يعلمون.

نامت (خديجة) على سـجادة الصـلاة، و في الصباح وجدتها أمها على حالها فأيقظتها.

- نمتِ و أنتِ تبكين يا خديجة!

تنهدت ثم أكملت:

- كل شيء سيكون بخير لا تحزني.

قالت بصوت متألم:

-آه و من يجبر خاطري المكسور يا أماه؟

- و مـن غيـر اللّه يفعل بُنيتي، وحده اللّه القادر على جبر الخواطر المنكسرة و تضميد القلوب المجروحة و ترميم الأرواح المتهالكة.

- لا تبكي يا حبة القلب لقد ذهب و ذهبت أيامه و غدًا تتخلصين منه لا تحزني على من لم يحزن عليك يا خديجة.

- لم أحب سواه يا أمي .

- القلب خطّاء يا ابنتي، فكثيرًا ما يختار الساكن الخاطئ.

-لقد أعدت نور الفطور هيا لنتناوله.

نزلتا ، أثناء تناول الفطور قالت (نور):

لقد أنجبت أسماء طفلة جميلة بحق.

قالت (ورد):

حقًا متى؟

- مساء أمس كنت أتصفح الفيس بوك و رأيت صورتها.

كانت خديجة تعبث بالطبق أمامها حتى قالت (ورد):

لنذهب إليها يا (خديجة).

-لن أستطيع الذهاب إليها ، سأذهب لخالتي.

- ما هذا الهراء يا خديجة ان أباك لو علم سيقتلك.

- لن أستطيع العيش بدونه يا أمي حتى و إن صرت جارية عنده.

دخل الشيخ عليهن فنظر إلى خديجة و قال:

-تذكـري أنـك تخليـتِ عنا من قبـل لأجله و ما كان منـه إلا أنه خذلـكِ، و اليـوم تفعلين مثل ما فعلتِ بالأمـس، إذا أردتِ الرجوع إليه أرجعي، أعلمي فقط أن أبوابي لن تُغلق في وجهك أبدًا رغم أنكِ لطالما أغلقـتِ أبوابكِ في وجهي، أعلمـي أنني أحبكِ أكثر بكثير من ذاك

الوليد إن كان يعلم ماهية الحب، وفقكِ اللّٰه معه و مع زوجه الجديد.

- أبي!

- لا تقولي شيء فكلما تحدثتِ عنه ألمني الفؤاد يا فتاة.

- أبي، انا أسفة و لكن قلبي منفطر و لا أدري كيف أداويه.

- لو كان دواء قلبك قربك منه صدقيني لكنت أنا من أعادكِ لبيته يا ابنتي.

أرتمت في حضنه فأخذ يمسد شعرها البني الطويل و يقول:

-أراح اللّٰه قلبك.

-سامحني يا أبي و لكن قلبي يؤلمني.

- ما صار قد صار و هو سيأتي غدًا و نُنهي هذه المهزلة .

في المساء كانت (نور) تقف بالشرفة حين وجدت (محمود) يقف بالأسفل منتظرًا (سليم) ، أطالت النظر إليه زفرت و قبل أن تستدير لتخرج من الشرفة، رفع رأسه و تبسم لها.

تساءلت كيف لشخص حين يبتسم أن تُذهب بسمته العقل!

في الصباح و حين كانوا يتناولون الفطور قال (يوسف):

المأذون سيأتي في الرابعة.

(ورد) :

حسنًا ، و الآن لا ترهق نفسك و تناول طعامك.

في الرابعة جلس المأذون و (يوسف) و (وليد) و (محمود) و كذلك (خديجة) في غرفة المكتب، بدأ المأذون مراسم الطلاق بقوله:

إن ابغض الحلال عند اللّٰه الطلاق ، فكرا مرة أخرى.

- لقد فكرنا يا شيخ و هي تستحق رجل أفضل مني.

رفعت خديجة رأسها و نظرت لوليد كأنها ترجوه ألا يكمل

بعدها بدقائق أنهى المأذون المراسم و قال محدثًا الإمام:

-تعلم يا شيخنا أن عليها أن تقضي أيام العدة في بيت وليد و إلا تأثم.

- أكيد أعلم هذا.

وليد:

- لكنني مسافر مساء اليوم لأجل العمل و لن أستطيع أن أخذها معي.

يوسف:

-لتذهب إذن لبيت والدتك لتبقى معها حتى تعود.

- حسنًا.

- سأجعل سليم يوصلها بعد ساعة و أنت أخبر والدتك بهذا.

أومأ رأسه إيجابًا و رحل.

و بعد ساعة أخذ (سليم) (خديجة) و رحلا.

و هكذا قدر الله أن تنتهي الحكاية حكاية فتاة أحبت فتى أضعاف ما أحبها...

حمزة

يستلقي على سريره نائما و هو يرتدي قميصاً أسود بدون أكمام، نوافذ الغرفة كانت مغلقة و رائحة أعقاب السجائر تملئ المكان، ينام بعرض السرير مرتديًا الحذاء، هيئته غير مهندمة شعره أشعث، فاهه مفتوح و يسيل منه اللعاب، على طاولة قريبة يوجد بقايا طعام و زجاجة ماء فارغة، فُتِحَ الباب و دلفت إلى الغرفة امرأة عجوز يبدو على هيئتها الثراء كما يبدو الشيب، سمينة و قصيرة، صرخت قائلة لما رأت ذاك المنظر:

-أستيقظ يا حمزة لا يوجد أحد ينام إلى الرابعة يا بني.

قال بصوت غير واضح لكنها فهمته:

-ذاك الكائن الصغير ظل يبكي و يصرخ إلى الخامسة و لم أستطع أن أنام .

- أنها ليست كائن أنها ابنة أختك.

نهض متخاذلا و قال:

أيًا كانت لا يحق لها أن تفعل هذا بنا يا أمي، أنها تتقيأ عليَّ، و تصدر روائح لا تليق بطفلة و...

قاطعته أمه قائلة:

-سيقولون هذا على طفلتك.

- لهذا لن أتزوج.

- آه منك يا حمزة أ لن تُريح قلبي؟

- أنا رجل يا أمي لن يفوتني قطار الزواج كالفتيات.

- و مـن قـال لك هذا ، بعد عشـرة أعوام سـتصبح في السـابعة و الثلاثيـن و سيشـيب شـعرك البُنـي هـذا ، سـيصير وجهك مسـكن للتجاعيد.

- أمي، أنك تبالغين.

- أريد أن أراك مستقر في حياتك قبل موتي، أن تكون بجوارك امـرأة تفهمـك و تحتويـك، تواسـيك حيـن تحـزن و تكون سـكنك وسـكينتك، لا أريدك وحيدًا في هذه الحيـاة، لقد أطمئن قلبي على أسماء و محمد و أنت يا حمزة أ لم يأن الأوان؟

- لم يُخلق مثلي للزواج.

- لمَ؟ ماذا ينقصك لتصير زوجًا؟

كاد يخبرهـا عـن مخاوفه مـن الزواج فهـو الذي يغـازل كل تاء مؤنثـة و لم يترك فتاة إلا و عبث معها كيف يقوى على الثقة بالنسـاء كيف يسلم شرفه و عرضه لامرأة.

- لا ينقصنـي شـيء غيـر أنني لا زلتُ صغير على الـزواج، لا زالت الحياة أمامي.

- قـد تكون الحياة أمامك طويلة و لكن لم يبق في عمري سـوى القليـل يـا بُنـي، و أريـد أن أرى قلبك بيـن يدي امرأة تحبـك فتحفظ عرضك و شرفك.

قال مغيرًا دفة الحديث:

-أنا جائع.

نظرت إليه بضيق و قد يئست منه، قالت بنبرة جافة:

-الطعام بالمطبخ.

خرجت من الغرفة تاركة إياه سابحًا في أفكاره.

تناول (حمزة) الطعام و اتصل بـ(سليم).

- سليم ، أين أنت ؟

- عند خالتي.

- لمَ؟

- حين أراك سوف نتحدث.

- تعالى إلى المنزل، لا أريد الخروج الليلة.

- حسنًا.

في التاسعة وقف (سليم) أمام منزل (حمزة)طرق الباب بعد دقائق فتح الباب ابن أخت (حمزة).

- أ حمزة بالداخل؟

- ينتظرك على السطح.

دخل (سليم) و صعد أربعة طوابق حتى وصل إلى مبتغاه.

لما وقع نظره على (حمزة) قال:

- تدخن بدوني أيها النذل؟

قال ساخرًا :

لو يسمعك الإمام.

ردد (سليم) و قد تغيرت ملامحه سلبا :

- الإمام به ما يكفيه.

- ماذا به؟

- لقد طلق وليد خديجة.

ألقى حمزة السيجار من يده و نظر إلى سليم بإهتمام ثم قال:

-أ لم يكن يحبها ماذا حدث له؟

- كان يتحدث مع امرأة مع على الإنترنت و كشفته خديجة ، حين واجهته ضربها ، كدتُ أن أقتله لكن أبي و محمود منعاني ،

سامحها الله خديجة هي من أصرت على الزواج به.

- أنه النصيب يا سليم يُصيب مهما فعلنا و هو نصيبها.

- أنها عند خالتي لتقضي أشهر العدة و ذاك الأبله سافر من أجل العمل، خالتي تقول أنها لا تعرف شيء بشأن زواجه و للأسف هي صادقة بهذا الشأن.

صمت لحظة قبل أن يكمل:

-كيف أستطاع أن يكسر فؤاد أختي؟

لوهلة شعر (حمزة) أنه حقير بل أحقر من أي حقير على وجه الأرض، نظر إلى (سليم) و قال:

- سليم ، الفتيات اللواتي جرحناهن لديهن أفئدة و أخوة أنهم يلعنونا الآن كما تلعن وليد ، نحن أيضًا قذرين يا سليم.

- لا ، هن كنَّ يعلمن أننا لن نتزوجهن و يعلمن مدى وضاعتنا نحن لم نكذب لكن وليد كذاب.

حاول (حمزة) أن يقنع ضميره بما قاله (سليم) فلم يستطع و أزداد ضيقه، لاحظ سليم فقال مغيرًا مجرى الحديث:

-لنذهب إلى الإسكندرية.

- حسنًا و لكن دعني أولًا أخذ إجازة و نكلم مصطفى و محمود.

- لن أذهب برفقة مصطفى سيظل يحرم هذا و يحلل ذاك أنه تلميذ أبي.

ضحك (حمزة) و قال :

- لو يعلم الشيخ ما تقوله لأقام عليك الحد ، أخطئت بحق مصطفى و عليك الاعتذار.

- أنه يعاني من المثالية الزائدة في الدم، أمثاله يعيشون طوال

عمرهم و هم يتظاهرون بالسعادة و الرضا ، إنه تلميذ أبي، أنا أكره هذا يا صاح.

- أ تعلم يا سليم أحيانًا كثيرة أتساءل ماذا فعلا أبي و أبوك لينجبانا؟

قال سليم ساخرًا :

- ربما أذنبا قبل أن يتوبا.

ضحك الإثنين وظلا يدخنان السجائر، أمتلئ المكان بتلك الرائحة القذرة، أعقاب السجائر منتشرة حولهما ، يجلسان على أريكة رثة ، يوجد أكواب كانت مملوءة ذات يوم، ظلا على تلك الحالة حتى اتصل الشيخ يوسف بسليم.

رد سليم بلهفة :

- أبي ماذا هنالك ؟

يوسف:

- تعال إلى المنزل.

- حسنًا ، أنا عند حمزة و سأتي.

أغلق سليم الهاتف و تنهد بضيق فقال له حمزة:

-ماذا بك يا صاح؟

- يجب أن أذهب.

- حسنًا سأنزل معك.

وقفا في مدخل المنزل حينها طُرق الباب، كاد (حمزة) يفتح إلا أن بن أخته سبقه و فتح.

قال أحمد بسرور:

- خالة ودَّ، أدخلي بسرعة.

دخلت من الباب فتاة في العشرين من عمرها طويلة ذات عيون ضيقة تجمعت فيها حلاوة الدنيا وأنف صغير مع شفاه رفيعة و بشرة خمرية بالإضافة إلى ذلك النمش على وجنتيها و أنفها فكأنه غبار من الجنة مبعثر.

ما أن سمع حمزة الاسم الذي نطق به أحمد حتى تعلق نظره بالباب لم يكن قد رأها منذ فترة طويلة نظر إليها و لسان حاله يقول :

يا الله أن الشمس كلما طلعت على هذا الوجه الجميل زادته جملًا ، (ودَّ) ترى هل لا زالت متعجرفة هل لا زالت تكرهني ؟

لها الحق في أي شيء تفعله فمثلها لا يطيق مثلي.

أخرجته من شروده تلك المرأة التي كانت تقف بجوار ودَّ حين قالت:

-كيف حالك يا حمزة؟

- بخير ، تفضلا.

شكرًا لك يا بني.

بعد أن دخلتا نظر سليم إلى حمزة و قال:

-كم أكرهها تلك ودَّ ، متعجرفة و مغرورة و كأن من خلقها لم يخلق سواها ، كم أكره اليوم الذي تأتي فيه إلى منزلنا.

حمزة:

- نحن لم نعتد أن نرى مثلها فحسب لهذا نكرهها.

رد سليم بنبرة غير مبالية:

-لا يهم، سأذهب الآن إلى ذاك المأتم الذي بالبيت.

- لا تزعج أباك.

-أضحكتني، هو من يزعجني.

دخلـت (ودَّ) الغرفة التي بها (أسـماء) أخت (حمزة) و قالت بصوت فرح:

-الحمد الله أنك معافى يا أسماء، أتشبهك أم تشبه أباها؟

قالت أسماء و هي تعي ما تقول جيدًا:

-تشبه حمزة.

تعكر ماء وجه (ودَّ) و لم تنطق.

قالت والدة حمزة:

- أ كان على أسماء أن تلد حتى تزورينا يا أم زهرة؟

أجابت سميرة:

- لا و الله تعلمين مكانتك عندي و لكن أ لا تعرفين بن عمك أن طلباته كثيرة لا يفعل شـيء بنفسـه أبدًا حتى كوب الماء ينادي على ودَّ لتعطيه إياه.

حولت (نادية) نظرها إلى (ودَّ) و أخذت تتأملها وتحدث نفسها قائلة:

خسارة أن تكوني كنّة لسواي، فتاة مثلها مهذبة محترمة متعلمة وماهرة في أعمال المنزل كيف لم تتزوج إلى الآن؟!

أ أصاب العمى الشباب أم ماذا؟ لو يقبل بها حمزة.

لم تمر برهة حتى طرق حمزة باب الغرفة فاعتدلت (ودَّ) في جلستها دخل بعد أن أذنت له (أسماء).

قال بتلعثم و هو لا يرفع عينه من على (ودَّ):

أمي أنا...

- ماذا بك يا حمزة.

-لا شيء، أريد شاحن هاتفي أين هو ؟

- بغرفتك يا حبيبي أين سيكون!

-ها ، حسنًا سأبحث عنه.

بعد أن رحلت (ودّ) و أمها ، جلست (نادية) في غرفتها تفكر فيما حدث ، دخول حمزة و سؤاله الغير مبرر عن شاحنه الذي يبقى دائمًا بمقبس الكهرباء ، و دخوله أثناء تفكيرها ب(ودٍّ) شعرت فجأة أنها علامة من اللّه فسرعان ما خرجت من غرفتها ، طرقت عدة طرقات على غرفة حمزة ، دخلت حين سمعت الأذن بالدخول ، جلست بجواره على طرف السرير و قالت:

-لم لا تتزوج بودًّ؟

فغر حمزة فاهه و قال بنبرة مصدومة:

-عن أي ودَّ تتحدثين؟

- ودَّ ابنة أسامة بن عمي ما بك!

قال بنبرة متألمة:

-و هل تقبل ودَّ بي؟

سعدت نادية كثيرًا بما قال ابنها فعلى غير العادة لم يرفض بل سألها إن كانت ودَّ ترضى به.

فطرقت على الحديد و هو ساخن و قالت:

- غدًا نعلم.

- ماذا سيحدث غدًا؟

- سأشرب الشاي عندهم.

قالت ما قالته و تركته و النيران قد اشتعلت في صدره.

دخلت (نادية) غرفتها ثم جلست على سريرها و أمسكت بهاتفها ، اتصلت ب(سميرة)

نادية:

- السلام عليكم.

- و عليكم السلام و رحمة الله و بركاته.

- أريد أن أحتسي الشاي معك غدًا.

- البيت بيتك يا أم محمد.

- شكرًا لك.

أغلقت (نادية) الهاتف و نامت و هي مرتاحة البال، بينما ظلت سميرة تفكر ماذا تريده زوجة عمران.

في الصباح حين استيقظت (ودَّ) بحثت عن أمها فوجدتها تنظف غرفة الضيوف.

قالت متعجبة:

-أمي ماذا هنالك؟

-لا شيء، نادية ستأتي لتشرب الشاي معي.

-أ لم نكن عندها أمس!

-لعلها تريد أن تقول شيء.

-حسنًا، سأذهب اليوم لنور لم أراها منذ فترة.

-حسنًا و لكن لا تتأخري.

في منزل الشيخ يوسف كانوا يحتسون الشاي حين قالت (ورد):

يوسف أنا أريد أن أذهب لأرى خديجة من بعد إذنك أكيد.

- أذهبي حيث شئتِ و لكن لا تتأخري.

-حسنًا.

-أنا سأجلس في المسجد حتى صلاة العصر.

قال (سليم):

سأذهب إلى جامعتي لأعرف نتيجتي.

و بالفعل ذهب كل شخص إلى حيث قال و بقيت (نور) وحيدة حتى جاءتها ودَّ.

كيف حالك يا (نور) اعذريني لم أزركِ في الأيام الماضية و قد كنتِ أحوج الناس إلى الزيارة و المواساة.

-آه يا ودَّ لو تعلمي ما فيَّ من ألم.

- كل شيء سيكون بخير لا تقلق، ي أسأل الله أن يلطف بكِ و بأهلكِ.

تنهدت (نور) و لم تنطق، فقالت ودَّ مغيرة مجرى الحديث:

-لم تري ابنة أسماء.

- رأيت صورتها.

-لقد ذهبت مع أمي بالأمس و التقطت لها عدت صور.

أخرجت هاتفها و أرتها الصورة فقالت (نور):

-هذه الفتاة تشبه حمزة!

-كلا، هي أجمل من ذاك الأبله.

-أ ما زلتِ تكرهيه؟

-أنا أكره كل رجل ينظر للمرأة على أنها مجرد جسد.

-أنتِ محقة يا ودَّ.

ظلت سميرة تنظر لنادية و هي غير مستوعبة لما قالته، نظرت لها نادية و قالت:

-ابنتك كبرت يا سميرة و عليها الزواج و لا أقول هذا لأن حمزة ابني و كما تعلمين أن ودَّ غالية عندي؛ لهذا ابني أولى ببنتك من أي أحد كما أن ابنتك أولى به من أي فتاة، ماذا قلتِ؟

-يا أختي إني أعلم كل هذا و أتشرف بك سأخبر ابن عمكِ حين

يعود و ليقدم الله الخير للجميع.

عادت (ودَّ) من عند (نور) و دخلت إلى المنزل فوجدت أمها بالمطبخ وما أن رأتها حتى ابتسمت و قالت:

-لقد طلب يدكِ عريس، أ لن تسألي من هو؟

إنه حمزة بن...

لم تكمل جملتها حين سقطت ودَّ مغشيًا عليها، حاولت أن تجعلها تفيق فلم تستطع، أخذت عبأتها و ذهبت ركضًا إلى الصيدلية القريبة من البيت، و ما أن دخلت حتى صرخت قائلة:

-أنقذ ودَّ يا حسن.

قال حسن وقد خُلع قلبه:

-ماذا بها ودَّ يا خالة؟

- تعال معي بسرعة لا وقت للشرح.

وصلا إلى المنزل فأرشدته إلى مكان (ودَّ)، ألقى عليها نظرة سريعة و حاول حملها، لكن اعترضت سميرة قائلة:

-لا تحملها هكذا أنا سأساعدك.

وضعها على السرير فقام حسن بقياس ضغط دمها فوجده منخفض، قام من مكانه و ذهب إلى صيدليته أحضر إبرة طبية و محلول وريدي و عاد.

غرز الإبرة الطبية في يدها و أوصل المحلول الوريدي بها و بعد ربع ساعة بدأت تستعيد وعيها ما أن لاحظت أمها حتى شهقت بفرحة قائلة:

-ودَّ!

حسن بحب:

-حمدًا لله على سلامتكِ.

قالت (سميرة) بنبرة حزينة موجهة حديثها إلى حسن:

-مسكينة لم تكد تفرح بعريسها حتى...

قال حسن مقاطعًا إياها:

-عريس!

-أجل يا بني لقد طلب يدها حمزة بن الحاج عمران.

بُهت حسن و ذهب لون الحياة من وجهه، لملم أشياؤه وخرج من الغرفة.

-كم تريد يا بني؟

-لا أريد شيء غير ودَّ يا خالة.

نظرت إليه مستفهمة، فقال بثبات كاذب:

-أريد الزواج بودَّ.

صمتت لعدة دقائق تحاول استيعاب ما يحدث، ثم قالت:

-سأخبر أباها حين يعود.

-خالة أنا أحبها منذ كانت بجديلتين لازلت أذكر فستانها الوردي الذي كانت تحبه، أنا أحبها يا خالة لا تزوجيها لغيري.

- لا احد يعلم أين النصيب يا بني.

رحل و بعد دقائق أفاقت ودَّ نزعت الأنبوب من يدها، صرخت قائلة:

-أنا لن أتزوج بأحد لا حمزة و لا حسن أفهمتِ يا أمي؟

صرخت (سميرة) في وجه ابنتها:

-أنتِ بلهاء فمثل حمزة يُقبل لماله و مال أبيه إنه وسيم و غني، أنتِ تعشقين الفقر، أنها فرصة عمرك يا حمقاء لا تضيعيها من بين

يديكِ، رجل كحمزة لا يرفض أبدًا ، أمه تحبك.

- أنـا لـن أتـزوج بماله أو بأمـه لأرضى بـه ، لن أقبـل بحمزة ذاك لمجـرد أنـه غني أو أمه تحبنـي ، إذا قبلت بحمزة اليوم زوجًا سـتأتين أنتِ في الغد و تأمرينني بتحمل خيانتَه لي ، أنا لا أريد العيش مع رجل أكرهـه لمجرد أنني أخاف لقب المطلقـة ، لن أتزوج إلا بمن أرتضيه دينًـا و خلقًـا و روحًـا ، لن أقبل برجـل يرى أنني مجرد قطعة شـطرنج تكمل لعبة حياته ، أفهميني يا أمي أرجوكِ.

- كفى هراء إنني رأيت أباك للمرة الأولى يوم الخطبة.

- هـذا زمنكـم أنتـم يا أمي ، كل شـيء تغير الآن فـلا يصح أن تقارنيني بكِ ، أنا لا أشبهك أبدًا و لا حياتي تشبه حياتكِ.

- حيـن يعـود والدك قفي و تكلمي معه بنفـس الطريقة إن كنتِ شجاعة ، و اللّه ليصفعنّكِ صفعة تدمي لها شفتاكِ.

-سأصرخ بكل قوتي و أخبره أنني لا أطيق رؤية حمزة لأتزوج به ، و أن حسن رجل على خلق لكنه ليس الرجل الذي أريد فهو يمجد تلك العادات الواهية التي أنكرها أنا ، سأتزوج حين أقرر أنا و ليس أنتم.

-هذا ما أخذناه من التعليم ، قلة الأدب و الحياء.

نظرت لها بجفاء و قالت بنبرة حادة:

-أبقِ بتلك الغرفة إلى أن يعود أبوكِ ، لا أريد رؤية وجهكِ أسمعتِ؟

-الآن صـرت مـن الخطائين لمجـرد أنني أطالب بحقـي ، ما دمت تُريدن التخلص مني لمَ أنجبتني؟

-كان يوم أسـوداً حين رأيت وجهكِ ، أغربي عن وجهي لا أريد أن ألمحكِ أفهمتِ.

حمقاء.

دخلـت ودَّ غرفتهـا و صفقـت البـاب خلفها ، جلسـت علـى الأرض

باكية و دون وعي منها قالت بصوت منخفض:

-لو كنت ولد ما كانوا فعلوا بي هذا.

ظلت تبكي إلى ان راحت في سبات عميق.

عاد (أسامة) من عمله و ألقى على زوجته نظرة خاوية من أي تعبير ثم قال:

-ماذا بكِ يا امرأة؟

- أ تتناول الغداء الآن أم حين تعود زهرة؟

-سأنام قليلًا حتى تأتي، و لكن ما بكِ و أين ودَّ لا أراها.

- أنا بخير، ودَّ نائمة في غرفتها.

نام (أسامة) حتى جاءت (زهرة): فتاة في ربيعها الرابع و العشرين قصيرة القامة بيضاء الوجه، لها نفس نمش أختها، عينيها بلون الكراميل رقيقة الصوت هادئة، جابت بنظراتها المنزل حتى و قع نظرها على والدتها و هي خارجة من المطبخ، قالت متبسمة:

-كيف حالك يا أمي؟

-آه حالي، أ حال أحد كحالي تلك البلهاء ودَّ طلب يدها حمزة و حسن الصيدلي حين علم جُن جنونه و طلب يدها مني في الحال، و الحمقاء تقول لن أتزوج الأن لا زلت صغيرة على الزوج، أنها حمقاء كبيرة أقنعيها يا زهرة.

- يا أمي ودَّ محقة، لا زال العمر أمامها و...

قاطعتها أمها قائلة:

-أكيد تغارين منها لهذا ستقفي معها ضدي و ضد أبيكِ تريدينها بجواركِ طوال العمر، أ لا يكفي أنكِ بلا زوج أو أبناء، عمركِ يضيع في العمل.

ابتلعت (زهرة) تلك الغصة المرة في حلقها، نظرت إلى أمها قائلة:

-أنتِ محقة في كل شيء، غير إني لا أكره لودّ الخير.

-أثبتِ هذا و أقنعيها بالزواج بحمزة.

- و لمَ ليس حسن؟

- لأن حمزة لديه كل شيء، عنده المال الذي سيعيننا على إتمام الزواج.

كادت (زهرة) تنفجر في وجه أمها لكنها تماسكت، دخلت غرفتها أغلقت الباب خلفها و جلست على طرف الفراش، خلعت حجابها، تنهدت بضيق و نظرت إلى المرآة و تركت العنان لدموعها.

سهام الكلمات لا تؤلمنا بقدر ما يؤلمنا معرفة الرامي، لم تكن أمها أول من يعيرها بتأخر الزواج و لكن كانت المرة الأولى التي تتألم فيها من مثل ذاك الكلام.

مسحت عبراتها بأناملها و تمتمت قائلة:

-لعله خير.

بدلت ثيابها و خرجت فوجدت أبها و قد أستيقظ و جلس على الأريكة.

-كيف حالك يا أبي؟

-بخير يا زهرة.

-هل تناولت الغداء أم تأكل معي؟

-انا أنتظركِ.

- حسنًا، سأساعد أمي في إعداد المائدة.

-أ لم تستيقظ ودَّ بعد؟

-كلا، لازالت نائمة.

-لم أرها حين عدت.

- لا بأس سأوقظها.

سـارت (زهرة) باتجاه الغرفة ، طرقت عـدة طرقات قبل أن يأتيها صوت (ودَّ):

-أفتحي يا ودَّ، انا زهرة.

-ماذا تريدين؟

-الطعام جاهز.

-لست جائعة.

-أ لن تفتحي لي، لم أركِ في الصباح!

-لا أريد أن أرى أحد.

-حتى زهرة أختك.

-لأنك من أهل هذا البيت لن أفتح لكِ.

- لمَ لا تفتحي لي بصفتي صديقتكِ زهرة؟

- سأفتح، و لكن إذا قلتِ حرف واحد لا يعجبني سأشعل النيران في المنزل بأكمله.

-لن أقول إلا ما يُرضيكِ.

فتحـت (ودَّ) البـاب فأشـفقت (زهـرة) عليها ، لقد كانـت حالتها مُزرية.

دخلت وعانقتها ثم قالت:

-كل شيء سيكون بخير لا تخافي.

-أنا لا أريد الزواج بحمزة أبدًا ، لا أطيق رؤية وجهه يا زهرة.

-أعرف، و لكنه ليس سيء أبدًا.

رفعت ودَّ حاجبها الأيسر و لم تنطق، فقالت زهرة بسرعة:

-قد يكون قذر و مدخن و يغازل كل و أي شيء مؤنث و لكن..

- و لكن ماذا؟

بربكِ ليس به صفة واحدة يُقبل لأجلها.

زهرة:

-لنتناول الغداء الآن و نتحدث فيما بعد.

-حسنًا.

ألتفت عائلة أسامة حول المائدة و شرعوا في تناول الطعام.

قالت (سميرة) موجهة حديثها زوجها.

-لقد طلب حمزة يد ودَّ اليوم.

نظر لها باهتمام و قد خُط السرور على أسارير وجهه ثم قال:

- حقًا، أخبريهم موافقتنا.

تنهدت ودَّ بضيق، و وضعت ملعقتها وقالت:

أنا لا أقبل بذاك الأبله زوجًا لي، أنا لن أدعكم تختارون الحياة التي سأحياها، إنني سأعيش معه ما تبقى من عمري و لست مستعدة لأقضي باقي عمري في جحيم.

صرخ (أسامة) في وجه ودّ:

-أنتِ عديمة الأخلاق، و أنا لم أحسن تربيتكِ؛ لهذا سأربيكِ من جديد.

صفعها على وجهها فسقطت على الأرض باكية و صارت شفتيها تنزفان، نظرت إليه و عيونها تحمل من الألم ما قدر الله أن تحمل، ثم قال لها بنبرة قاسية:

-ستتزوجينه رغم أنفك.

-نادية أخبريهم قبولنا.

تركهم و خرج من المنزل كله.

حاولت زهرة مساعدة ودَّ على الوقوف فأبعدت ودَّ يديها عنها و وقفت بمفردها.

دخلت ودَّ غرفتها و أغلقت غرفتها بالمفتاح، جلست على سريرها تبكي، إلى أن اتصل بها رقم غير مسجل تجاهلته أول الأمر و لكن مع إصرار الرقم أجابت، جاءها صوته هادئًا قائلًا:

-إن كنتِ لا تُريدين هذا الزواج مثلي قابليني غدًا في الجامعة الساعة الرابعة عصرًا.

- و ما مصلحتك في هذا.

-أنا أيضًا لا أطيق رؤية وجهك يا ودَّ.

-لا زالت وقح.

-لا زالتِ متعجرفة أيضًا، أسمعي أنا مُجبر على هذه الزيجة مثلكِ، و الآن ستقابلينني أم ستقبلي بحسن زوجًا؟

-حسنًا ألقاك غدًا.

❖ ❖ ❖

إسماعيل

وصل (إسماعيل) إلى الحارة في منتصف الليل، نزل من سيارته و سار باتجاه منزل قديم يقع أمام منزل أخته مباشرةً، و قف أمام الشجرة القابعة عند باب المنزل تلمس أسميهما المحفورين نظر إلى اسمها وتمتم قائلًا:

- قمر، أين أنتِ الآن يا عزيزتي، كم طفلًا لديكِ؟ أ لازلتِ تذكرينني يا قمري، آه أشتعل الرأس شيبًا و لازال قلبي نابضًا بحبكِ، ما ضر أبيك لو زجكِ بي، لو عاملني كسالم، ما دخل (ورد) بوفاة (محمد)؟

كان يبكي حين شعر بحركة داخل المنزل، مسح عبراته و صرخ قائلًا:

- من هناك؟

لم يسمع شيء غير صوت (سليم) آتًا من الشرفة.

-خالي، أهذا أنت.

نظر (إسماعيل) إلى الشرفة فوجد (سليم) يقف بها.

- كيف حالك يا سليم، أفتح لي الباب.

-أنا بخير، سأفتح الباب حالاً.

-ظل ينظر إلى المنزل إلى أن فتح (سليم) الباب.

سليم:

-هيا يا إسماعيل.

-الشيخ نائم إذن.

- كيف عرفت؟

-تقول (إسماعيل) بدون خالي.

-لا زلت تلحظ كل صغيرة و كبيرة.

-يا ليت ذاكراتي تشيب كما شاب قلبي منذ زمن.

فهم (سليم) ما الذي يقصده خاله، لم يعلق بل أمسك بيده و سارا معًا باتجاه المنزل.

وقفت (شهد) خلف النافذة مدهوشة مما رأته أنه الرجل نفسه الذي بالصورة، غير أن شعره صار أبيضاً و تلك التغيرات بوجهه بفضل يد الزمن.

تمتمت متسائلة:

-أ يكون هو أيعقل؟

حاولت (شهد) أن تنام، إلا أنها لم تستطع، فأخذت تتقلب في سريرها حتى الصباح.

في الصباح استيقظت (نور) فوجدت باب الشرفة مفتوحا، فتعجبت، ارتدت إسدال الصلاة و النقاب و خرجت إلى الشرفة، فوجدت خالها واقفًا يتأمل ذاك البيت القديم الذي تحفظ قصته عن ظهر قلب.

قالت بسرور:

-خالي إسماعيل!

-كيف حالك يا نوري؟

-بخير يا خالي، متى جئت؟

-في الليل.

-سأعد لك أشهى فطور.

-محمود و أمه سيأتيان؛ ليفطرا معنا.

نبض قلبها على ذكر اسمه و قالت بتلعثم:

-حقًا ، حسنًا إذن...

نزلت (نور) إلى الطابق السفلي لتعد الفطور فوجدت أمها تقف بالمطبخ.

-أمي لقد أتى خالي.

-أعلم لقد رأيته.

-كيف حالكِ اليوم؟

-بخير.

أمسكت (نور) بيد أمها و لثمتها ثم نظرت لها بعطف و قالت:

-أمي ماذا بكِ؟

-قلبي يؤلمني من أجل خديجة ، لقد كانت تحبه و لا زالت تحبه ، وهو أبله كبير و نذل أيضًا كيف يجرحها و هي من أحبته.

-لا عليكِ يا أمي، لا أحد يعلم أين يكمن الخير.

-لا أحد يعلم.

لا زال (إسماعيل) على تلك الحالة التي تركته (نور) عليها ، حين رآها واقفة تحت شجرة التوت، أخذ ينظر لها و يدقق النظر، إنها هي على نفس حالتها منذ اثنين وعشرين عام.

لا يكد يدري كيف خرج من الشرفة ، و لا الطريقة التي خرج بها من المنزل ، كل ما يعرفه أنه يقف قبالتها الآن.

تراجعت شهد إلى الخلف عدة خطوات، و قالت بتلعثم:

-ماذا تريد...؟

انتبه إلى نبرة الصوت المختلفة، فقال:

-من أنتِ؟

-و ما دخلك؟

-أ تعرفين قمر؟

- نعم، و لكن من أنت؟

-أين هي الآن؟

-لن أخبرك حتى تقول ما اسمك؟

- أنا إسماعيل، أين هي و ماذا تعرفين عنها؟

-إنها بسوهاج، أعرف كل شيء، و لكن من أين تعرفها؟

- لقد كانت جارتي و صديقة عزيزة، و الآن أخبريني من أنتِ و قولي كل ما تعرفينه عنها في الحال أرجوكِ، سأعطيكِ أي مال تُريدينه.

- إنها والدتي.

دمعت عيناه ثم قال:

-تبدين جميلة مثلها، هل هي سعيدة؟

-نعم.

-أ لم تحكي لكِ عني؟

-قالت لي أنكَ ستسألني عنها.

- ألا زالت تذكرني؟

- ربما لا أدري.

- أ لا زالت جميلة، ما هذا الغباء أكيد جميلة أنها قمري.

شعرت (شهد) أن وراء هذا الرجل سر ما، فقالت:

-أسمع أنا أعرف الكثير، لكن لن أخبرك بشيء، حتى تحكي لي الحقيقة و تقول من أين عرفت عمتي ؟

-عمتكِ؟!

- أذهـب الآن و سـأخبرك بكل شـيء غدًا في نفـس الموعد لقد أستيقظ أخي.

- حسنًا ، لكن لا تخلفي وعدكِ هذا.

- لن أفعل و لكن أذهب الآن.

عـاد (إسـماعيل) إلـى منزل أختـه ، فوجـد كلًا مـن (محمود) ، (عائشة) ، (نور) (سليم) ، (ورد) و (يوسف) ، قد التفوا حول المائدة.

سأله يوسف:

-أين كنت في هذا الوقت؟

-فقط كنت أتمشى في الجوار.

نظـر الجميـع إلى بعضهم البعض و قد عرفـوا أنه يكذب ، هو لم يتمشى بل كان واقفًا تحت شجرة التوت كما اعتاد.

تناولوا الطعام و لم ينطق أحد بأي شيء ، فكل قلب به ما يكفيه.

ذهـب (يوسـف) إلى المسـجد ، و عاد (سـليم) للنـوم ، بينما جلس (محمود) و (إسماعيل) في الشرفة يتحدثان.

-أ صحيح ما قالته أمك؟

-و ماذا قالت؟

-قالت أنك ستسافر بعد ثلاثة أشهر.

-نعم سأفعل.

-هل ستقضي حياتك بين الغرباء؟

-الغرباء أفضل ممن نظنهم أقارب و يتضح أنهم عقارب.

-العمر يتسرب من بين يديك.

-لن أستطيع أن أظلم روحي اكثر من هذا ، أفهمني أرجوك.

-أ لازلت تحب تلك الفتاة.

ضحك وقال بسخرية:

-لا يوجد مكان للخائنين بقلبي.

-لمَ ترغب عن الزواج إذن؟

-أنا لا أرغب عن الزواج، كل ما في الأمر أن الزواج قرار يغير حياة المرء و يقلبها رأسًا على عقب، و أنا لست مستعد، ربما بعد عام أو اثنين، لكن ليس هذا العام.

❖ ❖ ❖

ودّ

أثناء تتناول سميرة الفطور خرجت عليها ودَّ و هي مرتدية ملابس الخروج.

قالت بنبرة جافة:

-إلى أين أنتِ ذاهبة؟

- سأذهب إلى الجامعة؛ لأحضر إحدى الندوات.

-حسنًا أذهبي، حمزة سيأتي الليلة ليراكِ.

قالت بضيق:

-أفعلوا ما تُريدون، مهما اعترضتُ ستفعلون ما ترونه صحيح.

-أحسنتِ هذا بالضبط ما سيحدث.

ذهبت ودَّ إلى الجامعة و بالفعل حضرت إحدى الندوات و في الساعة الثالثة و النصف اتصل حمزة بودّ.

- كيف حالكِ يا جميلتي؟

- أحذف ياء الملكية أيها الأبله، فأنا لست لك.

- ستكونين بعد عدة أيام، يا حلوة.

حاولت كظم غيظها و هي تقول:

-ماذا تريد؟

- انا أمام الجامعة.

- حسنًا سأتي.

- أنتظركِ.

خرجت ودَّ من الجامعة فوجدت حمزة يقف أسفل شجرة، شاب في السادسة و العشرين من عمره، طويل القامة وسيم الشكل، عينيه سوداوتين أنفه دقيق جسمه رياضي، كان يرتدي حُلة سوداء، ما إن رأها حتى ابتسم لها، نظرت إليه بضيق، وقفت قبالته فرمقها بنظرات وضيعة، قالت في صيحة مكتومة:

- ماذا تريد؟

- لنجلس في مكان هادئ.

- لا، قل ما تريد هنا.

أنحنى و همس في أذنها:

-لن أفعل بكِ ما يصوره لكِ خيالكِ فلا تخافي، أنتِ لا تروقين لي، أفهمتِ؟

- وضيع، حسنًا لنجلس في مكان عام.

ضحك و قال بسخرية:

-أكيد سأفعل، فأنا أخاف على نفسي منكِ.

-أبله.

-يكفي، هيا لنذهب.

جلسا في مطعم مُطل على النيل، خلع حمزة نظارته الشمسية، ابتسم لها، فزفرت بضيق.

-ماذا تريد؟

- أنتِ لا تريدين الزواج بيَّ.

-و هل جئت لتقنعني؟

-كلا، أنا مجبر على هذه الزيجة مثلكِ فأسمعي إلى النهاية و لا تُقاطعيني.

- حسنًا.

- أمـي تحبكِ و تريد مني الـزواج بكِ لأنجب منك و تفرح بأبنائي و بالطبع تعلمين الكلام المماثل لهذا ، و أنتِ أهلكِ يريدون أن يُزوجوكِ ليتخلصـوا منكِ أو بمعنى ألطف يطمئنوا عليكِ، و نحن مسـاكين لا نريد إغضابهم و في الوقت ذاته لا نريد أن نظلم أنفسنا؛ لهذا ستقبلين بي و بعد فترة ننفصل.

-و كيف سيقبلون انفصالنا؟

- سأخونكِ مع فتاة ما أي شيء من هذا النوع.

- و ما مصلحتك في هذا؟

- أخبرتكِ أنني مجبور مثلكِ.

-و لكن أنت رجل لا تُجبر على الزواج وحدهن النساء يُجبرن.

- قـد تجبـر المـرأة بوضـوح أما الرجـل فتجبره أمه تحت مسـمى الخوف عليه.

- و ماذا لو كانت هذه إحدى حيلك و أنك لن تنفصل عني؟

- لأنني و بكل بسـاطة لسـت حيـوان ، لن أتزوجـكِ رغمًا عنك، قـد أكـون قذر في نظـرك؛ لأنني أرافـق الفتيات و لكنـي لم أجبر إحداهن يومًا على فعل شيء لا تريده، أنالا أخذ شيء بالقوة.

أقترب منها و همس في أذنها:

- أنا أخذ ما أخذه بلطف، لطف يا ودّ أنا لا أحب القوة أو العنف.

- أبتعد عني أيها الأبله.

ضحك ثم قال ساخرًا:

- صدقيني أنتِ لستِ نوعي المفضل أبدًا.

- أسـمع أيها الأحمق، لقد قبلت بذاك الإتفاق لأنني لا أملك خيار

أخر أفهمت؟

- بالطبع يا عزيزتي.

- إن حاولت الاقتراب مني بأي طريقة أو مبرر أبله مثلك سأقتلك، أسمعت؟!

- شرسة ، متعجرفة و جميلة إلى حد ما.

- و الأن أغرب عن وجهي.

- أراكِ الليلة حُلوتي.

أبتعد عنها ، فزفرت بضيق و حملت حقيبتها و عادت إلى المنزل.

❖ ❖ ❖

في المساء و بعد أن أرتدت ودّ ملابسها ، دخلت أمها ممسكة ببعض أدوات الزينة. لاحظت ودّ تلك الأشياء بيد أمها ، فقالت بضيق:

- أنا لن أضع أيًا من تلك الأشياء على وجهي.

- عليك أن تتزيني لحمزة.

- ليس عليّ هذا أبدًا لأنه و بكل بساطة ليس زوجي.

- سيكون إن شاء اللّه.

- لن أضع شيء يكفي أنني قبلت.

- حسنًا لن أضغط عليكِ.

قُرع الجرس فعلمتْ أنه حمزة و والدته.

دخلت الغرفة التي يجلسون بها.

-السلام عليكم.

ردت نادية:

-و عليكم السلامة و رحمة اللّه و بركاته، تعالي يا حبيبتي

أجلسي بجواري.

جلست ودّ بجوار نادية، فربتت الأخرى على كتفها.

بدأ عمران الحديث:

-لقد جاءنا اليوم لنطلب يد ودّ لحمزة.

- إنه لشرف لنا.

قالها أسـامة و لا يوجد أحد أسـعد منه، فهو اليوم سيضع يده بيد أغنى رجل بقريتهم.

قال عمران:

-الخطبة ستكون بعد أسبوع إذا كان هذا يناسبكم.

قال أسامة:

يناسبنا إن شاء اللّٰه و لكني أريدها خطبة و عقد قران.

نظرت ودَّ إلى حمزة و قد أصفر وجهها بينما هو صُدم بما حدث.

-عمران بتفهم:

-أتفهمك يا أسامة، أنا أيضًا أرغب في هذا.

رحل آل عمران، فرمقت ودّ أباها بحقد، ثم قالت:

- هأنذا سـأفعل ما تريدون، فلا سامحكم اللّٰه على ما ستفعلونه بيّ.

صرخ أسامة في وجهها قائلًا:

-أنـا لا أريـد أن أضربـك، فأنتِ صـرتِ عروس و حـرام أن يصير وجهكِ مشوه.

- صدقني لن يشكل هذا أي فرق.

دخلـت غرفتهـا و أغلقت الباب بالمفتاح، ظلـت تبكي فقالت من بين دموعها:

- أ لم يحرموا بيع الرقيق لماذا إذن يعاملون النساء كالجواري؟!

راحت في سبات عميق بعد كل ذاك البكاء.

في الساعة السابعة صباحًا اتصل حمزة بودّ.

أجابته بصوت ناعس.

-ماذا تريد؟

-أردت أن أخبركِ فقط أنني لم أكن أعلم أي شيء عن عقد القران.

-لا تهتم.

-أنا...

-ماذا تريد؟

- أ يمكنني مقابلتك؟

- أسمع أيها الأبله لقد وافقت على ذاك الإتفاق اللعين فقط، و لكني لم أقبل بك صديق.

- أنتِ بلهاء.

- لقد أستيقظت لتوي، فلا تُزعجني أفهمت؟!

- أنا أردت فقط إخبارك بأن لا يد لي في ذاك الأمر.

لم تدعه يكمل فأغلقت الهاتف بوجهه، عادت للنوم.

❖ ❖ ❖

كان حمزة يقود السيارة و هو يفكر بودّ، هو بإمكانه أن يرفض ذاك الزواج و لكنه أشفق عليها حين علم بأمر حسن، تذكر تلك الليلة حين ذهب إلى الصيدلية ليشتري دواء لابنة أخته الرضيعة، رمقه حسن بنظرات حاقدة قبل أن يقول له بنبرة متوعدة:

إليك عن ودّ يا حمزة.

كان يعرف قبول أسامة له، فقال:

إليك أنت عنها فأنا خطيبها، سل أبيها حتى.

ترك حسن وسط ذهوله و خرج.

فكر بحيلة ما فلم يجد أمامه سوى الإتفاق مع ودّ.

حاول أن يقنع نفسه ان هذا هو السبب الوحيد فلم يستطع، ودّ تعجبه، يروق له نقائها، لكنها لن تقبل به أبدًا، لن يرتبط أسمها باسمه إلا بالإكراه، إنهما كالأبيض والأسود نقيضان، يريد الاقتراب منها و يحول بينهما وضاعته.

زفر في ضيق و صف سيارته أمام الشركة التي يعمل بها كمحاسب.

شهد

ظلت شهد تفكر في أمر ذاك الرجل الذي يسمى ب(إسماعيل) و علاقته بعمتها طوال الليل، فما ان أشرقت الشمس حتى أرتدت ثيابها و ظلت جالسة أسفل الشجرة منتظرة (إسماعيل)، بعد ساعة من الانتظار رأته و هو أتً من بعيد، و قفت في مكانها فوقف قبالتها، قال بثبات:

-أخبريني كل شيء و الآن.

-حسنًا، لقد توفيت أمي بعد أن أنجبتني بأيام فتولت عمتي قمر مسئوليتي، حتى بعد ما تزوج أبي و أنجب ولدين، لم أكن أعرف لما بقيت عمتي بدون زواج، و قبل ذهابي بأسبوع أخرجت لي صورتك من صندوق قديم كنت أصغر سنًا من الأن، قالت لي أنك ستستوقفني و تسألني عنها و أمرتني أن أخبرك أنني ابنتها.

- لمَ قالت لكِ هذا؟

- لا أدري، ربما تخاف من جدي أو من شيء أخر، و الأن أخبرني أنت عن علاقتك بها و لا تقل أنها جارتك فحسب أفهمت.

- كان لكِ عم يسمى محمد أحب أختي و طلب يدها إلا أنها رفضت و تزوجت ببن عمي، مات عمك بعدها، و بعد عشرة أعوام أحببت قمر، وطلبت يدها من جدكِ لكنه رفض بحجة أن رفض أختي لعمكِ هو سبب موته و بقينا هكذا لعامين، أطلب يدها و يرفض جدك، خطب أبوكِ أمكِ، و ذهبت عمتك لحضور الزفاف بسوهاج و لم تعد، بعد عدة أشهر قررت طلب يدها من جديد، لكن حينها كان الوقت قد فات، اليوم الثاني لي بسوهاج كان عقد قران

عمتـك علـى رجل يدعى كـرم، حاولت أن أراها فلم أسـتطع و عدتُ بالخيبات.

- عمتـي متزوجـة، و لكـن كيف انا لـم أرى زوجها هذا و هي لم تنجب أبدًا.

-أنا ظننتك أبنتها، أنتِ تشبهينها و لكن حين أخبرتني أنها عمتكِ شعرت بأن الحياة عادة لي.

-و زوجتك و أبنائك.

-أنا لم أتزوج، لم أقوى على ظلم أحد، تركت القرية بأكملها و ذهبت إلى العاصمة، لي منزل هناك أعيش فيه مع الألم.

-مـن المؤكد أن عمتي لا تعرف شـيء عن حياتك كما لا تعرف أنت شيء عنها.

- هل يمكنكِ مساعدتي.

- كيف؟

-سلي عمتكِ عن كرم، و عني و لنرى ماذا ستقول.

-و ماذا لو لم تقل الحقيقة؟

-لن تكذب، قمر (إسماعيل) لا يكذب.

-قمر (إسماعيل)!

-نعـم، هكـذا كنت أناديهـا، بعد أن رحلت حفرت اسـمها على تلك الشجرة.

أشار بإصبعه بإتجاه شجرة التوت.

-أسأل الله أن يجمعك بها.

-آمين.

-هل لك أن تذهب الأن، أخي سيستيقظ.

-حسنًا ، متى ستذهبين إليها؟

-لا أدري ربما بعد إلتحاقي بالكلية.

- قبل أن تذهبي أخبريني بأي طريقة حسنًا.

-سأفعل، و الأن أذهب.

عـاد (إسـماعيل) إلى بيت أختـه ، صعد الطابق إلـى العلوي فوجد باب الشرف مفتوحًا ، حين دخل وجد (نور) تقف بالشرفة.

-ماذا تفعلين هنا يا فتاة؟

- كنت أستنشق بعض الهواء.

- أ لن تُعدي الفطور؟

- بلى سأفعل.

نزلت (نور) لتُعد الفطور ، بينما ظل (إسـماعيل) واقفًا في الشـرفة ينظر لذاك البيت و يفكر في ساكنيه القُدامى.

بعد أن تناولوا الفطور ذهب الشيخ إلى المسجد ، عاد سليم للنوم و كذلك (إسماعيل) ، بينما ذهبت (ورد) إلى السوق.

❖ ❖ ❖

قُرع الجرس، فتحت (نور) الباب فوجدت ودّ تقف قبالتها.

-ودّ!

- كيف حالك يا (نور)؟

-أنا بخير ، ماذا عنكِ؟

-لست بخير.

-هيا للداخل إذن.

جلستا في غرفة (نور) ، قالت (نور):

-ماذا بك؟

-حمزة طلب يدي.

شـهقت (نور) غير مصدقة ما سـمعته، نظرت لـودّ محاولة معرفة المزيد.

-طلب يدي قبل يومين

و جلس معي هو أهله بالأمس.

-أنتِ لا تمزحين أليس كذلك؟

قالت باكية:

-ليته كابوس أفيق منه إنما هي حياة أعيشها.

- أهدأي الأن كل شيء سيكون بخير.

-خير، سأذهب معه غدًا لنشتري الذهب، أنا لن أُخطب له فحسب بـل سـينعقد قراننا كذلك، لا أعلم لمَ يفعـل بي أبي هذا، أنا لا أريد الزواج من حمزة أو بغيره، أريد أن أحيا قبل أن أموت، أفعلي شـيء يا (نور) لا أريد الزواج بحمزة.

عانقتها (نور) و أخذت تهدأ من روعها، حتى سكنت بين أحضانها.

-لعله خير يا ودّ.

-أنـا التـي حافظت على قلبها كل تلك السـنين أمنـح قلبي لذاك الذي يهب قلبه لكل تاء مؤنثة.

- أ لم تخبري أهلكِ برفضكِ؟

قالت بمرارة:

-أخبرتهم فصفعني أبي.

-ليس أمامكِ خيار سوى القبول إذن.

- أتمزحين معي؟

-لا ، و لكـن أرضِ بقضـاء اللّه ، و أسـألي اللّه أن يصلحـك لـكِ حمزة.

-أنت لا تفهمين ما أعانيه يا (نور).

- أظهـري وكأنـك موافقة ، لعل حمـزة يرغب عنـكِ و يمل منك؛ لأنني أعرف كيف تتعاملين معه.

- سأجعله يكره اليوم الذي ولد فيه.

- كنت أعرف أنكِ ستفعلين.

- (نور) ، أنا خائفة ماذا لو تزوجت بحمزة؟

- أنا لا أؤمن بالصدفة بل بالقدر؛ و كل ما نلقاه في درب القدر هو مجرد حلقة متصلة بحلقات أخرى ، فلا تستخفي بإحدى الحلقات.

-هل ترين هذا؟

-أنا أؤمن بهذا.

-حسـنًا يـا ابنـة الإمام علـي الأن الرحيـل ، حتى لا تظـن أمي أني هربت.

❖ ❖ ❖

دُق الباب ففتحت (نور) ، و ما أن فتحت حتى وجدت (محمود) يقف أمامها يحمل عدة حقائب.

-السلام عليكم ، كيف حالكِ يا (نور)؟

-بخيـر ، أسـفة لا يمكنك الدخول فلا أحد بالمنزل غير سـليم و خالي و هم نيام.

-لا بأس ، لقد قابلت زوجة خالي في السوق.

مد يده بالحقائب ، فأخذتها منه بيد مرتعشة.

تلامسـت أناملهما ، فسرت رعشة في جسـدها نظرت إلى الأرض

وقد توردت وجنتاها.

-شكرًا لكَ.

- لا عليكِ، و الأن أدخلي.

أومأت برأسها إجابًا و قبل أن تغلق الباب، قال (محمود):

-حين يستيقظ (إسماعيل) أجعليه يتصل بي.

-سأفعل.

وضعت (نور) الحقائب بالمطبخ ، جلست على الأريكة و كل تفكيرها منصب على (محمود).

و أخذت تقول لنفسها:

و كأن عيناه نهران و أنا لا أجيد السباحة؛ لهذا غرقت.

جاءها صوت سليم و هو يقول:

-(نور) من كان هنا؟

أفاقت (نور) من شرودها على صوت سليم، فقالت:

-أنه (محمود) أحضر بعض الحقائب.

-حقائب؟

-حقائب يا سليم، قابل أمي بالسوق فأحضر حقائبها.

-أنا سأخرج قليلًا.

❖ ❖ ❖

كان سليم يسير في زقاق جانبي لا يمر منه في العادة، فسمع صراخ فتاة، ألقى السيجارة التي بيده أرضًا، و ركض باتجاهها، صرختْ قائلة:

-أنقذني.

- ماذا بكِ؟

-يركضون خلفي.

نظر سليم خلف الفتاة فوجد ثلاثة شبان يركضون إتجاهما.

-لا تخافي، أنا معكِ.

صرخ أحد الشبان قائلًا:

-أتركها، أنها تخصنا.

- ماذا تريدون منها أيها الصعاليك؟

قال أحدهم:

أنه بن الإمام يوسف.

فقال ثالثهم:

هل (إسماعيل) خالك أيها الفتى.

-نعم.

- أذهب إذن، فقد كان صديق أبي، لكن إذا رأيت تلك الفتاة تسير في الجوار فلن تراها مرة أخرى.

ألتفت سليم فوجد الفتاة قد جلست على الأرض و تكورت على نفسها.

أقترب منها، فكانت فاقدة الوعي، حملها بين ذراعيه و خرج من إحدى الأزقة الجانبية، فصار أمام بيته طرق الباب عدة مرات ففتح له (إسماعيل).

قال (إسماعيل) مندهشًا:

-ماذا حدث؟ من تلك الفتاة ؟

-دعني أدخل أولًا.

أفسح له (إسماعيل) الطريق فدخل، رأته (نور) فقالت:

-من تلك يا سليم؟

-أفسحي الطريق يا (نور).

صعد سـليم إلى غرفة أخته وضـع تلك الفتاة على الفراش و جلس على الأرض يستوعب ما حدث.

دخلت (نور) الغرفة، وقفت قبالة سليم، قالت:

- أخـرج يا سـليم، لا يصح أن تبقى في الغرفـة معها؛ فأنت غريب عنها.

- سأحضر لها طبيب.

- خالي ذهب، أ لا تعرف من هي؟

- لم أرها من قبل.

خرج سليم من الغرفة، فألقت (نور) نظرة خاطفة على تلك الفتاة، أشـفقت عليها و تذكرت أختها التـي أهملتها فقررت زيارتها بعد أن تعرف حكاية الفتاة.

أرتدت ثيابها، و جاء حسن الصيدلي ليرى الفتاة.

قال مطمئنًا:

-إنها بخير فقدت توازنها من الخوف.

-شكرًا لك يا دكتور.

-بعد دقائق ستفيق، لا تقلقي.

أنصـرف الطبيـب ، و بعـد دقائق عاد الوعي للفتـاة، ما أن فتحت عيناها حتى صرخت قائلة:

-أين أنا ماذا فعلوا بي؟

أمسكت (نور) يدها مهدئة ثم قالت:

-لا تخافي، لم يحدث لكِ شيء، أنتِ هنا في منزل الإمام يوسف.

- يا ويلي، سيقتلني ياسر، هل المكان هنا يبعد عن شجرة التوت.

-أي شجرة توت تقصدين، هناك ثلاث أشجار توت بالحارة واحدة عند باب بيتنا و أخرى أمام المنزل الذي أمامنا و الثالثة عند عمتي.

-هل لي أن أقف في الشرفة لأعلم إذا كانت الشجرة التي أقصدها قريبة.

- أكيد، تفضلي.

حاولت الوقوف فلم تستطع، أشفقت عليها (نور) فقالت:

- أجلسي قليلًا، يبدو أنك غريبة عن هنا فلو لم تكوني هكذا ما مشيتِ من ذاك الزقاق.

- أنا غريبة عن هنا و لا أعرف أي أحد غير أخي الذي لا يعرف شيء مثلي و خادمة أتت معنا من سوهاج.

- تلك الشجرة التي تسألين عنها، لا يوجد علامة أخرى تدلنا عليها؟

تذكرت شهد كلام ذاك الرجل عن حفره لأسمه و اسم عمتها على الشجرة، فقالت بسرعة:

- محفور عليها قمر (إسماعيل).

وقفت (نور) مندهشة لا تعرف ماذا تقول، في اللحظة عينها دخلت (ورد) فسمعت ما قالته الفتاة.

-أ قولتي قمر (إسماعيل)؟

أجابت شهد بنبرة مرتعدة:

-نعم...

قالت (ورد):

-من أنت أيتها الفتاة؟

-أنا شهد ، اسمي شهد سالم إبراهيم.

قالت (ورد) متعجبة:

-ابنة سالم البكر!

أكملت:

-تشبهينها ، تشبهين قمر!

شهد:

-أنها عمتي، أ كل شيء على ما يرام؟

(ورد) بنبرة فظة:

-كنا بخير قبل أن نراكِ.

(نور) بإحراج:

-أمي، من الواضح أنها لا تعلم شيء.

-صرخت شهد قائلة:

-من أنتم.

حين سمع (إسماعيل) صراخ أخته و ابنتها خشي أن يكون قد وقع مكروه للفتاة، ركض إلى الغرفة و دخل، فلم تكن الفتاة سوى شهد ، فرغ فاهه فلم يكن قد رأى وجهها عندما احضرها سليم، قال بثبات واهي:

-ماذا هنالك.

رأت فيه شهد طوق النجاة، قالت بصوت طفولي:

- عمي (إسماعيل)!

- قالت (ورد) بصيحة مكتومة:

- (إسماعيل) أ تعرف تلك الفتاة.

أجاب متلعثمًا:

-نعم... أعرفها ، أنها ابنة أخو قمر.

-قمر؟ قمر مرة أخرى يا (إسماعيل)؟!

صاح قائلًا :

-و إلى الأبد يا (ورد) ، إلى أن أموت ستظل بقلبي.

-لقد ضيعت عمرك من أجلها و هي تزوجت و عاشت حياتها ، أفيق يا أخي أرجوك.

-لا أستطيع، أقول لك ما قلته قبل أعوامٍ عدة ، قمر بقلبي إلى أن أموت يا أختي و أوصيكِ بها خيرًا.

-ماذا بك، أنها عاشت حياتها بينما مت أنت.

-كلانا يعلم أنها أُجبرت على تلك الزيجة.

-و لكن تزوجت.

أمسكت (نور) بيد شهد و خرجتا من الغرفة.

قالت (نور) :

-أعتذر عما فعلته أمي أنها لا تقصد إهانتك، فخالي (إسماعيل) ليس أخاها فحسب بل ابنها كذلك.

-لا تهتمي، أ لا تعرفين شيء عن قمر تلك.

- كانت حبيبة خالي و لا زالت حال بينهم القدر فصار على تلك الحال.

شهد :

-أنها عمتي، لكنني لم أكن أعرف شيء غير ما قاله لي خالكِ.

(نور) :

-أ تحدثتِ معه؟

-نعم، لكن عمتي تعيش معنا منذ زمن لا أدري ماذا حدث،

لكنها ليست متزوجة.

غادرت شهد مسرعة بعد أن سمعت صياح (ورد)

صاحت (ورد) في وجه أخيها :

- لقد ضاع عمرك و أنت تبكيها ، و اليوم تريد أن تركض وراء سراب؟

- لقد شعرت بقلبي ينبض، بعد كل تلك الأعوام، ذُكر اسمها فأصاب الربيع قلبي، فماذا لو رأيتها؟

- أرحم فؤادك يا أخي، إن لم يكن لأجلك فليكن لأجلي ليس لي سواك و أنت تعلم.

- إن كنتِ تحبينني فلا تقفي أمامي، إنه خيط الأمل الوحيد الذي سيُحييني من جديد.

- ماذا لو ألتف حول عنقك و شنقك يا أخي؟

- سأموت ميتة الشرفاء.

- إما أنا أو هي.

- فؤادي، أختار فؤادي يا أختاه.

- أخاف أن يقتلوك!

- أنا ميت على كل حال.

- هكذا إذن، أعتبرني مت يا (إسماعيل).

- لا تفعلي بي ما فعله أبي، لو غادرتُ بيتك اليوم لن أعود أبدًا.

- أبق، و لكن لا تجعلني أخسرك.

- سأحاول.

عانقته و ظلت تبكي إلى ما شاء الله أن تفعل.

❖ ❖ ❖

خطبة

مـرت الأيـام على حمـزة ثقيلة ، و على ودّ أثقل حتى جاء يوم شـراء الذهب.

كانـوا ينظـرون إلى واجهـة المحال حتـى وصلوا إلـى مبتغاهم ، دخلوا محل الجوهرجي الذي تتعامل معه عائلة حمزة.

قال عمران:

-السـلام عليكـم يا حاج غالـب، أريد أجمل قطـع لديك لعروس ابني حمزة.

-و عليكم السلام، أفضل القطع عندي لا تخرج إلا لكم.

أخرج الرجل الكثير و الكثير من القطع المختلفة الحجم و النوع.

قالت سميرة موجهة حديثها للجوهرجي:

-ألا يوجد عندك سوار أثقل من هذا.

نظرت ودّ لوالدتها بحنق، كادت تبكي من فرط الحرج، شـعر بها حمزة، فقال:

-أريد أثقل من هذا الخاتم أيضًا ، الذهب صار خفيف هذه الأيام.

بعد أن انتهوا من شـراء الذهب أسـتأذن حمزة أن ويذهب و ودّ إلى أحد المطاعم فأذن لهم أسامة على الفور.

ظـل حمزة ينظر لودّ بشـفقة ، كانـت تنظر إلـى الأرض و عيناها دامعتين، لمس يدها الموضوعة على الطاولة فانتقضت.

قالت بصيحة مكتومة:

-أعلـم أنـك أشـتريت الكثير من الذهـب لأجلي و لكـن هذا لا

يعطك الحق بلمسي.

- أنا لم أقصد ، كنت أحاول التخفيف عنكِ.

-و ما الذي تعلمه أنت لتُخفف عني؟

لا تعرف شيء ، لقد كنت أحلم بهذا اليوم كثيرًا ، حين يطرق بابنا شاب أرتضيه دينًا و خلقًا ، تمتزج روحي بروحه فلا تنفصلا أبدًا ، نشتري الذهب سويًا و يخفف أبي عليه المهر ، اليوم شعرت أني جارية في سوق النخاسة ، أنت لا تعلم شيء عني ، و لن تعلم و إياك أن تلمسني أ فهمت؟!

نزلت دموعها عنوة ، أخذت حقيبتها و خرجت من المكان ، لحق بها حمزة ، وقف أمامها ليمنعها من الذهاب ، قال بنبرة حانية :

- أعتذر لكِ عن أسلوبي ، لم أقصد و اللّٰه يعلم ، كنت أريد التخفيف عنكِ ، صحيح أنا لست الرجل الذي تتمنيه ، لكنكِ فتاة يتمناها كل رجل ، حتى أمثالي من الرجال ، أسأل اللّٰه أن يجمعك بأصلح رجال الأرض.قالت ودّ بعد أن مسحت دموعها بأناملها

- لم أكن أقصد إهانتك ، كنت منزعجة و إنفجرتُ بكَ.

- لا تهتمي ، أعلم أن ما تمُرين به صعب.

حتى الإختلاف لا يمنع روحين من الإتصال و لا قلبين من الحب.

❖ ❖ ❖

كان سليم يجلس مع حمزة و لكنه كان يفكر بتلك الفتاة التي أنقذها صباح اليوم ، لا تشبه أي فتاة يعرفها ، أنها نقية كأخته (نور) فيها شيء منها ، لطالما تمنى أن يقابل فتاة ك(نور) ، يثق بها و يشعر بأن نقاءها ليس وهم.

كان حمزة كذلك يفكر بودّ تلك المتعجرفة كما يسميها.

تذكر في السادسة عشر من عمره بينما هي بالعاشرة، كان يلعب كرة القدم مع أصدقاءه حين مرت هي من أمامه و هي تحمل عدة أكياس من الخضراوات، صدمها بكرته، فلم يكن منها سوى أخذ الكرة و تمزيقها.

صرخ في وجهها:

-أنت بلهاء، لمَ فعلتِ هذا بالكرة؟ ردت عليه بصراخ مماثل:

-لأنها عديمة الأخلاق و الحياء مثلك، أ لم ترني وأنا أسير؟

- و الله لأضربنك ضربة تبكيكِ.

-تضربني أنا! سأُريك الآن.

أخذت حجر من الأرض و قذفته به.

ظل جبينه يدمي، ذهب لوالدته فأخذته للمشفى خاطوا له جرحه، تحسس مكان تلك الندبة و ضحك، نظر له سليم و قال:

-ما بك اليوم، لم أعهدك هادئًا، أم هي نون النسوة اتصلت بك فصرت ساكنًا.

-حمزة لا يسكن، أنا فعل مضارع.

- لكن الفعل المضارع يصير ساكنًا إذا اتصلت به نون النسوة، صرت مبنيًا على السكون يا صاح.

ضحك سليم ، ظل يضحك إلى أن اتصلت به خديجة.

-السلام عليكم يا خديجة كيف حالكِ؟

جاءه صوت خالته مذعورًا.

-خديجة فقدت وعيها، أنقذني يا سليم.

أغلق معها، و هم بالرحيل.

-ماذا هنالك يا سليم؟

- خالتي تقول أن خديجة فقدت وعيها.

-أنتظر سأتي معك.

-لا ، أبق.

-أكيد ستحتاج سيارة.

ركبا سيارة والد حمزة و ذهبا.

نزل سليم من السيار ، طرق عدة طرقات على الباب ففتحت خالته (رجاء).

صرخ في وجهها :

-ماذا بها خديجة يا خالتي؟

بكت المرأة و قالت بكلمات غير مفهومة إلا أنه فهمها :

-إنها بغرفة وليد.

وجدها ممددة على الفراش، و ضع غطاء الوجه على وجهها و حملها بين ذراعيه.

خرج و وضعها بسيارة حمزة ، انطلقا قاصدين المشفى.

ظل منتظر خارج غرفتها و الألم ينهش قلبه ، خاف حمزة أن يتطور الأمر و يصير أسوأ فأتصل بـ(محمود) و أخبره بالأمر ، بعد ربع ساعة خرج الطبيب من غرفة خديجة ، قال بأسارير متهللة :

- أ أنتَ زوجها؟

- كلا ، أنا أخوها.

- أنها حُبلة ، مبارك لكم.

ظل وليد مندهش، و قال بحنق:

- أ لن نتخلص من ذاك الوليد؟

وصل (محمود) و الإمام إلى المشفى بحثا عن سليم ، وجدوه يجلس

أمام إحدى الغرف و تعابير وجهه مبهمة.

ما أن أقترب منه الإمام حتى قال بقلق جلي:

- أين أختك و ماذا حدث لها؟

- هي بخير يا إمام لا تقلق، أنها تحمل في أحشائها حفيدك.

- خديجة حُبلى حقًا؟

- لمَ أنت سعيد هكذا يا أبي، أنه سليل وليد الوضيع.

- أخرس، لا تقل هذا امام أختك، أين غرفتها؟

أخبره سليم أنها الغرفة المقابلة له، و خرج من المشفى و هو يلعن وليد.

دخل الإمام الغرفة بعد أن سمع الإذن بالدخول.

-كيف حالك يا خديجة؟

-أبي! أنا حُبلة يا أبي.

-عرفت يا حبيبتي.

- أ لن تخبر وليد؟

تجهم و جه الشيخ ثم قال بنبرة حاول جاهدًا جعلها عادية:

- لنخبره في الصباح أفضل، و الأن هيا ستأتين معي.

- و خالتي؟

-سأجعل أمك تخبرها.

قالت (ورد) لما رأت خديجة:

-كيف حالك حُلوتي؟

- بخير يا أمي، أنا حُبلى يا أماه.

قالت (ورد) بفرحة جلية:

-الحمد الله الذي جبر قلبكِ يا بُنيتي.

دمعـت عين (نور) حين علمـت نبأ حمل أختها فرحت كثيرًا لذاك الخبر السعيد.

لم يكن هنالك كاره لذاك الخبر سوى سليم.

أتصلـت (ورد) بأختهـا و أخبرتها ، ففرحت كثيـرًا لذاك الخبر ، كانت خديجة تجلس على سـريرها حين دخلت والدتها ، قالت (ورد) بنبرة حانية لما رأت الدموع على وجنتي ابنتها :

-لمَ تبكِ الآن؟

لم تجبها خديجة ، فأردفت (ورد):

-لعل فراقه خير من بقاءه.

أجابتها بصوت متهدج:

أن أشد من فراقه عليّ، شوق قلبي له.

اجابتها في تريث:

-أن شوق الفراق حبل، الحبل مهما أشتد سينقطع يومًا.

تلمست خديجة بطنها و قالت و الدموع تنساب على وجنتاها :

-لقـد دعـوت اللّه ثلاث عشـرة عـام أن أنجب منه ، و اليـوم بعدما افترقنا يستجيب!

- تذكري قصة الخضر و موسـى عليه السـلام ، لم يكن سـيدنا موسـى يعلـم أن والـدا الطفـل مؤمنين و هو سـيرهقهما ، لعـل الخير يكون في هذا الطفل، لعله عوض اللّه يا خديجة.

زادت في بكائها و هي تقول:

- لمَ قلبي الأحمق لا زال يحبه ، أنا لا أستحق كل هذا!

- قالت (ورد) و قلبها يتبعثر لأجل ابنتها :

- -أحسني الظن بالله يا بنيتي.

- أ لم يخبره أحد بنبأ حملي؟

- لم نصل إليه بعد.

ربتت (ورد) على ظهر ابنتها قائلة:

بعد غد خطبة حمزة و ودّ.

فغرت خديجة فاهها ثم قالت:

كم أخشى أن يكون مصيرها نفس مصيري.

❖ ❖ ❖

مرت الأيام و قبل خطبة ودّ بيوم، زارت ودّ (نور).

-لا أصدق أن خطبتي و ذاك الأبله غدًا.

-أنه الواقع و لو كرهتِ.

- أ ليس من الظلم و الجور أن يزوجوني رجل لا أطيق سماع اسمه؟

-أسمعي يا ودّ، أنكِ و إن اعترضت فسيعلن والدك عليك الحرب الضروس، و أنتِ لن تقوي على المواجهة، كما أن احتجاجك الأن لن يغير شيء، لهذا عليكِ القبول و الرضا بالواقع، و لن أوصيكِ على حمزة فأنتِ تكرهينه على كل حال.

-سأجعله يتمنى الموت.

في صباح يوم الخطبة كانت ودّ تجلس على السرير تضم ركبتيها إلى صدرها ناظرة لسقف غرفتها، أخذت تفكر في الأشهر القادمة و ماذا سيحدث فيها، خافت أن يخدعها حمزة بذاك الإتفاق فلا ينفصل عنها كما وعدها، دمعت عيناها، لطالما تمنت هذا اليوم، حفظت قلبها من كل حب لأجل يوم كهذا، غضت الطرف عن الرجل كي لا ترى غير رجلها، حدثتها نفسها أن تهرب، و لكن إلى أين المفر،

الهروب منهم عودة إليهم.

مسحت دموعها ، وقفت أمام المرآة تنظر لوجهها الشاحب و عينيها الحمراوين، فقدت القليل من وزنها.

قالت ودّ تناجي نفسها :

-ماذا بكِ يا ودّ؟ أي ذنب أرتكبتِ ليحدث لك كل هذا؟

دخلت والدتها فقطعت حديث ودّ و نفسها ، قائلة:

- أ تُحدثين نفسك من الفرحة.

- فرحة! عن أي فرحة تتحدثين؟ ألا ترين رونقي الذاهب و وجهي الشاحب، عيناي الحمراوين؟

- ماذا تقصدين؟

- أنا لا أريده، و تعلمون هذا.

- لا تنطقي حرف أخر، لو جاء من الآن لن تتزوجي إلا بحمزة.

جثت على ركبتيها و بكت، قالت متوسلة:

- سأموت إن تزوجته لا أريد رؤيته يا أمي.

أمسكت سميرة بفك ابنتها السفلي، قالت متوعدة:

-إن لم تنتهي عما تقولينه سأقتلك الأن أفهمتِ؟!

-سأكف يا أمي و لن أتفوه بحرف أخر، أعلمي أنني لن أسامحكِ أبد الدهر على فعلتكِ هذه.

صرخت في وجهها :

- و لم لا تُسامحينا يا قليلة الحياء، ماذا فعلنا بكِ؟

و كادت تضربها لو لا تدخل زهرة، بعد أن أقنعت زهرة أمها بمغادرة الغرفة جلست بجوار ودّ على الأرض، مسدت شعرها و هي تقول:

كل شيء سيكون بخير يا ودّ.

انتحبت ودّ أكثر فضمتها زهرة و ربتت على كتفها مهدئة لها.

بعد نصف ساعة قامت ودّ من مكانها، غسلت وجهها و أرتدت ملابسها و ظلت منتظرة حمزة.

كان يقف أمام سيارته حين رأها مقبلة عليه.

خُلع قلبه حين لاحظ وجهها الشاحب و عينها المنتفخة الحمراء.

قال بنبرة حانية:

-ماذا بك يا ودّ؟

-ماذا بي! أ حقًا تسأل؟

-أ فعلتُ شيء دون وعي مني؟

- بفضلك أنت سينعقد قراني على أكثر رجل أبغضه، كرهت اليوم الذي تحبه أي فتاة، أنا لا أريدك أنت، أريد رجل، على زوجي أن يكون رجلًا و ليس مجرد ذَكَر، أمك تريدني زوجة لك لأصلح ما خربته بدلالها لك، قل لي هل من العدل أن أتزوج بك؟ أن يكون اسمي و اسمك مرتبطين؟

أنت مدلل، تافه، سخيف، و لا تعرف شيء عن المسئولية، لن أسامح أبواي لأنهما قبلا بك و أرغماني عليك، و لن أغفر لوالديك اختيارهما لي زوجة لابنهم السيء، و لن أغفر لعادات وأدت أحلامي كما في الجاهلية، لن أعفو عنكم حين نقف أمام اللّه.

وقف حمزة مندهش لا يدري ماذا يقول لها، هي محقة في كل ما قالته، لن يبرر فعلت أمه تلك ، هي تعلم أنه سيء و لكن مع هذا تختار له أصلح الفتيات.

قال بصوت يحاول جعله ثابت و هو مهزوز:

- لقد وعدتك أن أصلح الأمر، قلت لك لن أتزوجكِ، و لا زلت عند

كلمتي، حاولي أن تثقي بيّ أعلم أنه صعب عليك هذا و لكن حاولي.

ساد الصمت عدة دقائق، قطعه حمزة قائلًا:

و الأن لنذهب لصالون التجميل ذاك.

ظلت طوال الطريق صامتة تنظر من نافذة السيارة و هي شاردة.

ألقى نظرة عليها، كاد يبكي و هي تتحدث، ود لو يعانقها فيخفف عنها لكنه علم أنه لو فعل لزاد الطين بَلة.

وصلا إلى وجهتهما، فتحت باب السيارة و مضت فركض حمزة خلفها، نظر إليه بحنو ثم قال:

-أعتذر نيابة عن الجميع، حاولي التظاهر بالسعادة الليلة حتى لا يزعجكِ أحد، و لا تخافي من أي شيء بعد الأن فستصبحين زوجتي.

بعثرتْ تلك الكلمات ما تبقى منها، فدمعت عيناها و أومأت أن نعم و دخلت إلى صالون التجميل.

❖ ❖ ❖

سلمت ودّ نفسها إلى المزينة تفعل بها ما شاءت، لما انتهت الفتاة من تزيين ودّ قالت لها:

-تبدين جميلة لكنكِ لستِ سعيدة، و قبل أن تقولي أي شيء، لقد مر عليّ الكثير من الفتيات و أستطيع معرفة السعيدة من المتظاهرة بالسعادة.

نظرت لها ودّ و لم تنطق.

فقالت الفتاة:

-فهمت الأن، أنتِ لا تحبين ذاك الفتى الوسيم أليس كذلك؟

ابتلعت ودّ غصتها ونظرت إلى الأرض.

-اسمعيني، رُبّ رجل طرق بابك خيرًا من حب يحطم فؤادك.

-لكـن هـذا الكلام حين أكون راضية عنـه، أما أنا فمجبرة، ذاك الـذي تقولين عنه أنه خير أنه الشـر بعينـه، ليس كل من يطرق الباب جاد، فالأطفال يطرقونه و يركضوا ليتسلوا.

تنهدت الفتاة و قامت من مكانها.

في الساعة الثامنة مساءً جاء حمزة ليأخذ ودّ.

وقف أمامها مسحورًا بجمالها، كانت ترتدي فستان بلون السماء بـه حبات لؤلؤ متناثرة على الصدر و الخصر ترتدي حجاب بنفس لون الفسـتان، تضع بعض مسـاحيق التجميل التي لم تخفي جمال وجهها الطبيعي.

أطـال النظر لهـا، فتوردت وجنتاها و نظـرت أرضًا، تنحنح بحرج و قال:

-تبدين جميلة، كأنك ملاك هبط على الأرض.

كادت توبخـه لكنهـا لاحظت أمـه التي تقف خلفه، ابتسـمت و نظرت أرضًا.

نادية:

-ما شاء الله، قمر يا ودّ، صدق حمزة حين قال ملاك، لا تخجلي منه فسيصر زوجك بعد دقائق.

تعكر ماء وجهها على أثر تلك الكلمة، لاحظ حمزة فقال موجهًا حديثه لوالدته:

- هيا لنذهب يا أمي.

أمسك حمزة بيد ودّ، حاولت إفلات يدها من يديه فقال:

أرجوكِ لا تحرجيني أمام أحد، أعلم أنك لا تُطيقين رؤية وجهي، لكن تحملي.

زفرت في ضيق، وسارت معه.

في السيارة ظلت ودّ تستغفر و تتمتم بكلمات غير مفهومة، نظر حمـزة لهـا بإعجاب غريب، ودّ لـو يقول لها ماذا فعلتِ بـيّ لمَ لا أقوى على رفع عيني من عليكِ؟

- لا تنظر لي يا أحمق.

- أهدئي، قد يسمعك السائق.

❖ ❖ ❖

وصـلا إلى المـكان المقام فيه عقـد القران، حديقة واسـعة بها العديـد مـن الكراسـي البيضـاء، و مـكان عـال به أريكـة مزينة بالزهـور ليجلس عليه ودّ و حمزة، توجها إلى ذاك المكان و جلسـا، ظل المهنئون يتوافدون عليهما، وقفت سـميرة بجوار ودّ و همست في أذنها:

-لا تنزعجي مما قلته لكِ يومًا ما ستعرفين أني محقة.

نظرت لها ودّ بضيق و لم تنطق ببنت شفة.

ظل أسامة يستقبل الناس و نسى أن يهنئ ابنته.

جاءت (نور) تبارك لودّ، همست في أذنها:

تمالكِ نفسكِ، أجعليه هو من يتمنى الرحيل.

ابتسمت ودّ ابتسامة حقيقية بعد كم هائل من الزيف.

كانت زهرة تقف بجوار ودّ حين شعرت بحجابها ينفك.

ذهبت إلى المرحاض و عدلت من وضعية حجابها، خرجت، وقفت بأحـد أركان الحديقـة الخالية مـن الناس، رأتها سـيدة عجوز يبدو عليها الثراء، أُعجبت برقة ملامحها، فأقتربت منها و قالت باسمة:

- تبدين جميلة، ابنة من أنتِ.

قالت زهرة في خجل:

-أنا ابنة أسامة علي الدين.

-شقيقة العروس.

-نعم.

-كم عمركِ؟

-أنا في الرابعة و العشرين.

-هل يمكن أن توصليني لعند ابني أشرف.

-أكيد يا خالة، تفضلي.

وصلتا إلى إحدى الطاولات، كان يوجد شاب جالس على تلك الطاولة ممتلئ الجسد، في الثلاثين من عمره، ينظر بحنق لكل من حوله.

قالت منيرة موجهة حديثها لزهرة:

شكرًا يا ابنتي، أشكر زهرة يا أشرف.

نظر أشرف إلى زهرة و قد فهم أنها فتاة أعجبت أمه فستُرشحها له كعروس.

ابتسم لزهرة ابتسامة مصطنعة.

فرحلت زهرة.

قال أشرف في حنق:

-أخبرتك أنني أكره هذا الأسلوب يا أمي، لم أعد طفل، و انا لن أتزوج تلك الفتاة أو أي فتاة تختارينها، لقد سبق و أخترت.

قالت بإنزعاج :

-تلك المطلقة، والدة الطفلة أليس كذلك؟

-تدعى وعد، و لا يعيبها أنها مطلقة.

-أ تريد أن تكون سبب موتي؟

لن تتزوج غير من الفتاة التي أختارها ، أ فهمتَ يا بني ؟

-هيا لنرحل الأن.

- أنا لن أغادر ، غادر أنت.

-حسنًا ، حين ينتهي هذا الهراء أتصلي بي.

-لا أريد شيء منك.

زفر في ضيق و رحل.

❖ ❖ ❖

رأت منيرة سميرة و هي تقف عند البوابة ، اقتربت منها و قالت مبتسمة :

- السلام عليكم ، مبارك عليكِ يا أم زهرة.

- وعليكم السلام ، بارك الله فيك يا أختاه.

- أريد أن أتحدث معك قليلًا.

قالت سميرة و قد ضاقت ذرعًا :

-الآن! خير.

-أريد ابنتكِ زهرة لأبني أشرف.

تهللت أسارير سميرة ، قالت بسرور :

- يشرفنا هذا يا أختي ، أتصلي بي متى شئتِ.

- -حسنًا ، أكلمكِ و نحدد موعد.

غادرت منيرة المكان و هي في قمة سعادتها.

بينما زادت سعادة سميرة التي تعلم كل شيء عن ثراء منيرة ، سُرت كثيرًا فهي بذلك تتخلص من ابنتيها في وقتٍ قريب.

❖ ❖ ❖

بدأ المأذون مراسم عقد القران، سأل حمزة:

أ تقبل بودّ ابنة أسامة زوجة لك؟

شـرد حمزة قليلًا، ودّ تعجبه منذ كان مراهقًا، لكنه لم يتخيل قط أنه قد يرتبط أسمه و أسمها، أن تصير زوجة له.

سرعان ما عاد من شروده قائلًا:

-أقبل و بشدة.

ضحـك الجميـع على حمـاس حمزة الزائـد، في حيـن كانت ودّ تتظاهر بالثبات و هي منهارة داخليًا.

جاء دور ودّ فسألها المأذون:

-أ تقبلين بحمزة ابن عمران بعلًا لكِ؟

صمتت ودّ للحظة قبل أن تقول:

- لا، لا أقبل

- نظـر لها الجميع مندهشـين، بُهت لون أسـامة و أرد لو يكسـر لابنتـه رأسـها، نظـر لهـا حمزة كأنـه يرجوهـا أن تتراجـع عن ذاك القرار، ساد صمت مطبق على المكان.

ذهـب لون الحياة مـن وجه ودّ حيـن رأت نظرات أبيهـا المتوعدة، فقالت بصوت و كأنه صوتها الأخير.

- أنا أقبل بحمزة زوجًا ليّ.

قال المأذون:

-بارك الله لكما و بارك عليكما و جمع بينكما في خير.

لـم تخلُ الحديقة من الهمسـات، عُزف لحن رومانسـي، فأمسـك حمزة بيد ودّ و همس في أذنها:

- يجب ان نرقص، ليهدأ الوضع قليلًا.

أومأت له موافقة.

أمسك بيدها و وقفا سارا عدت خطوات قبل أن يصلا للمكان المخصص للرقص، لف يده حول خصرها بينما وضعت هي يدها حول رقبته بخجل شديد.

نسى الجميع ما قالته ودّ، و ركزوا معها و حمزة و هما يرقصان.

همس حمزة في أذنها:

- لمَ فعلتِ هذا؟

قالت:

- أنها روحي، لم تقوى على تحمل ألم جديد و جرح أخر، فتحدثت...

نظر إليه بعطف قائلًا:

- أعلم أنه لشيء صعب عليك، لكن هذا أهون من زواجك بشخص أخر، حينها سيكون ارتباطًا أبدي.

- عدني.

- -بماذا؟

- أن تنفصل عني، و ألا تُخلف العهد حتى لو وقعت بحبي.

أزدرد ريقه و قال بتلعثم:

-أعدكِ...

تنفست الصَعداء فعاد لون الحياة إلى وجهها من جديد.

❖ ❖ ❖

كان يقف بعيدًا وحيدًا، عرفها وسط الزحام، ميزها القلب وسط ذاك العدد الهائل من الناس نبض لها نبضة تدوم أبد الدهر، لا يغيرها زمن و لا تُمحى من الذاكرة، كان يسميها زهرتي، يقول عنها:

يا زهرة نبتت في الفؤاد أخاف عليها من خريف قلبي.

كان يراها و هي ذاهبة إلى السيدة (ورد) لتعلمها القرآن الكريم، فتاة في العاشرة بجديلتين و عينين كالكراميل، كان في الثانية عشر من عمره، مصطفى الغريب كما ينادونه،

تلميذ الأمام يوسف، شاب حيي، خلوق، وخجول طويل القامة، جسده ليس بالممتلئ و لا بالنحيف، شعره بُني كما الحال مع لحيته المشذبة.

وقف ينظر إليها بين الحين و الأخر، أبصرته زهرة فتوردت وجنتاها فهي تَكَنْ له ما يكنه لها.

أنتهى اللحن، فعادا ودّ وحمزة إلى مكانيهما، و بعد ساعة أنتهتْ حفلة الخطبة و عاد كل فرد إلى منزله، عادا ودّ و حمزة اللذين ذهبا إلى إحدى الفنادق ليتناولا العشاء.

طلبا الطعام، وضع النادل ما طلباه أمامهما، لم امد ودّ يدها إلى الطعام و ظلت شاردة، زفر حمزة بحنق قبل أن يقول:

- ودّ، هل تحبين حسن؟

- لمَ تسأل؟

- قال بتلعثم:

- لو تحبينه سأزوجكِ له...

- لا أحبه.

- و لا تحبين أي رجل غيره؟

- لا، لقد أدخرت كل مشاعري لزوجي.

- أنت فتاة صالحة يا ودّ، أسأل الله أن يريح قلبكِ، هلا أكلتِ الآن؟

- حسنًا.

أوصل حمزة ودّ إلى منزلها ،دخلت ودّ فوجدت الجميع نيام فحمدت اللّه و نامت.

جفى الوسنُ جفنا حمزة ، يفكر في ذاك الوعد الشاق، كيف يمنع نفسه من حبها و هي تعجبه ، كل شيء بها يحثه على الاقتراب أكثر ، يريد معرفة ما تُحب و ما تكره ، أنها كطفل عنيد مهذب ، هي وردة شذاها يجعله يُقبل وأشواكها تجعله يدبر.

❖ ❖ ❖

قدر

مـر شـهر بعـد الخطبـة، و فـي كل يوم يحـاول حمـزة معرفة أي شـيء جديد عن ودّ إلا أنها لم تترك له المجال ليفعل، سـافرت شـهد إلى سـوهاج لتعـرف ماضي عمتهـا، بينما عاد (إسـماعيل) إلى عمله بالقاهرة، و لم يستطع أحد الوصول لوليد و إخباره نبأ حمل خديجة.

في الشركة التي يعمل بها حمزة، كان حازم يجمع أشياؤه بينما يحدث حمزة قائلًا:

-أ لن تأتي معي؟

- لم أنتهِ من عملي بعد.

-حسنًا، كما تريد لكن تذكر أنك تهرب كل مرة.

-أخبرتك أنني سـأحفظ القرأن عند الشـيخ يوسـف، لكن ليس الأن بعد الزواج إن شاء الله.

-لا أحد يعرف متى يتوفاه الله يا حمزة.

-أذهب يا حازم كي لا تتأخر.

بعد ذهاب حازم بربع ساعة، أتصل بحمزة.

-السلام عليكم يا حمزة.

-و عليكم السلام و رحمة اله و بركاته، ماذا تريد؟

-هناك ملف أسود أعطه لشريف.

-حسنًا، وصلت لعند شيخكَ؟

-كلا، الشوارع مزدحمة جدًا.

-حين تنتهي أتصل بيّ.

أنتهى حمزة من عمله، كان يأخذ المفاتيح من على المكتب، حين جاءه اتصال من حازم:

قال حمزة بمرحه المعتاد:

-أخيرًا انتهيت، أنا جائع.

جاءه صوت أنثوي رقيق يقول:

-مالكَ هذا الهاتف في المشفى.

أخبرت الممرضة حمزة باسم المشفى، لا يعرف كيف ذهب إلى هناك و لا ماذا حدث حين رأى جثة صاحبه، أفاق على صوت أبيه ينادي باسمه.

فتح عينيه بصعوبة.

قال عمران بفرح:

-حمزة، الحمد لله.

قال بصوت خافت:

-أين حازم؟ سنتناول الغداء معًا، لقد وعدني ألا يتأخر.

بكى عمران ذاك الشاب الخلوق الراحل، أمره الطبيب بالخروج من الغرفة.

بعد ساعة انتهت إجراءات خروج حازم من المشفى، ظل حمزة راقدًا في المشفى يوم كامل، لا يشعر بشيء، مسترخي الأعصاب؛ بسبب الإبر المهدئة، حين علمت ودّ بكت بشدة على حمزة و صاحبه، حاولت الذاهب إليه، لكن عمرا ن منعها و أخبرها أن حمزة سيعود غدًا.

❖ ❖ ❖

كانت ليلتًا ليلاء على ءال عمران ، في الصباح خرج حمزة من

المشـفى برفقـة أبيـه و أخيه محمد ، لـم يكن حمزة الـذي عهدوه، كان جثـة هامـدة زارتها المنيـة ألف مرة، حين وصل إلـى المنزل لم يقـل حـرف، حتى لما عانقته أمه عانقها ببـرود ، دخل غرفته و أغلق عليـه الباب، تحمم و جلس شـاردًا على أرضيـة الغرفة يضم ركبتيه إلى صدره، أرسـلت نادية احمد بن أسـماء ليخبر ودّ بعودة حمزة لعل وجودها يهون عليه ألم قلبه.

ركضت ودّ إلى منزل حمزة بعد ما علمت بعودته.

إستقبلتها نادية بحرارة، قالت برجاء:

-أدخلي له، خذي هذا الطعام معكِ لعل وجودكِ جواره يخفف عنه ما فقد، أجعليه يأكل.

أومـأت ودّ أن نعـم ، أخـذت الطعام، طرقت البـاب عدت مرات، فقال حمزة بصوت واهن:

-لا أريد رؤية أحد.

ردت عليه بصوت حاني:

-حتى أنا؟

أنا ودّ يا حمزة.

قال بلهفة:

-ودّ!

-هلا فتحت الباب، أنا قلقة عليكَ.

- وحدكِ ستدخلين.

-أعدكَ.

فتـح الباب، هالها منظره، كأنه كبر عشـرون عام، لم تعرفه، وجهه شـاحب به صفرة المرض و الأعيـاء، عيناه ذابلتين، هيئته غير مهندمة-على غير العادة-

وضعت الطعام على طاولة قريبة، عاد إلى حالته الأولى، اقتربت منه، أمسكت بيده فأنتبه إليها.

-للّه ما أعطى و للّه ما أخذ يا حمزة، نحن نريدك، خالة نادية كادت تموت من فرط خوفها عليكَ، لا أمنعك من الحزن، لكني أمنعك من التمادي فيه، و هو -رحمه اللّه- يحتاج دعواتك أكثر من دموعك تلك، أدع له يا حمزة.

قال بصوت باكي:

-لقد كان ذاهبًا إلى شيخه ليحفظ القرأن، لو كنت ذهبت معه لكنتُ ميت الآن.

الموت كان قريب مني للغاية، أخاف الموت و أنا أحمل كل تلك الخطايا و الذنوب على عاتقي.

-لعلها رسالة من اللّه يا حمزة، تغير و أنا معك إلى أن ينصلح حالك.

أمسكت بيديه، قال:

-لا تتركيني.

وقف وضمها إلى صدره وظل يبكي، لم تستطع إبعاده عنها، بعد دقائق أبعدها عنه، قائلًا:

أسف لم أكن أقصد إزعاجكِ، لكني كنت محتاج لكِ، لكلماتكِ تلك، سامحيني على كل ما فعلته بكِ في الماضي.

قالت بصوتها الناعم:

-لا عليك، يجب أن تأكل.

-لا أريد، رؤية الطعام.

-لأجل خالتي.

-لا أريد يا ودّ.

- أرجوك، أن وجهك شاحب جدًا.

- هلا تركتني وحدي.

أضاف:

-لا أريد رؤية أحد.

-سأذهب و لكن كُل أي شيء.

أخذ بضع لُقيمات وقال:

-ها قد فعلت.

-حسنًا، أراك غدًا.

عادت ودّ إلى منزلها و لأول مرة تشعر بشيء اتجاه حمزة حتى لو شفقة، في اليوم التالي حين ذهبت ودّ لحمزة وجدته لا زال نائمًا، ترددت قبل أن تقول:

-حمزة أستيقظ هذه أنا ودّ.

فتح عينيه ببطء و نظر لها، جلس قائلًا:

-ودّ! كم الساعة؟

-أنها العاشرة.

تثاءب قبل أن يقوم من مكانه و يذهب إلى المرحاض.

لفت انتباه ودّ ألبوم صور موضوع على المكتب، أمسكت به و ظلت تقلب فيه حتى وصلت لصورة حمزة و هو في الخامسة، ضحكت ثم قالت:

كم كان يبدو سعيد ولطيف!

جاءها صوته و هو يقول:

ما عاد لطيف، أو نقي لقد لطختني الخطايا.

ودّ بحنان:

اللّه قادر على غسلنا من خطايانا يا حمزة.

-لمَ تساعديني؟

ازدردت ريقها ثم قالت بتلعثم:

-لم أعتد ترك أحد حزين...

-ابتعدي عني، لا أريد أن أحبك، أخاف عليكِ مني، أنا إن وقعت بحبك سأسجنكِ بين ضلوعي فلن تعرفي سبيل للهرب يومًا.

-لمَ تقول هذا الكلام الآن؟

- لأنني أعلق بك كل يوم أكثر، إن كنتِ ستتركينني فلا تقتربِ أكثر.

-حمزة، أ لن تفي بالعهد؟

- سأفي، لكن لا تحطمي فؤادي.

قالت و الدموع تنساب على وجنتاها:

-و ما دخلي بفؤادك؟

-اللعنة، ألا تعلمي أنكِ تسكنيه.

هزت رأسها أن لا أمسكت بقبضته قائلة:

-لم أقصد أن أؤذيك، أنا أسفة يمكنك إنهاء كل شيء الآن، أخبر أبي أنك لا تريدني، سيوافق حينها على زاوجي بحسن، و هو ليس سيء.

و كأن ما بين ضلوعه ليس قلب بل جمرة، قال و قد أشتعل فؤاده بنيران الغيرة:

-حسن! تحبينه إذن؟

لمَ كذبتِ حين سألتكِ؟

-و ما دخلك إن كنت أحبه او حتى لا أطيق رؤية وجهه.

أمسك بيدها و جذبها نحوه فالتصقت به، ثم همس في أذنها:

-أنا أحبكِ مذ كنتِ بجديلتين، لا زلت أذكر حين رأيتك بالحجاب أول مـرة، خطفتني منيِ فما عدت أعرف من أنا، قالوا أنتَ تملك ألف قلـب تحـب كل فينة أنثى، و وحده اللّه يعلم أن ما دق قلبي لإحداهن، وحدكِ أنتِ حين مررتِ جعلتي مُري حلو، و دُقت طبول القلب لكِ.

لـم تقوى ودّ على الكـلام، أفسـح لها المجال فخرجت من المنزل بأكمله، لا يدري لمَ قال لها ذاك الكـلام، كانت روحه من يتحدث لم تقوى على الكتمان، أبتْ كل شيء عدا البوح.

جلس على طرف سريره مرر أصابعه في شعره و هو يتنهد بأسى.

عـادت ودّ إلى منزلها دخلت غرفتهـا و أغلقت الباب، ظلت تبكـي و لا تدري لمَ.

بعد ساعة اتصل بها.

-أنا أعتذر لكِ عما حدث يا ودّ، سأسـافر غدًا إلى الأسكندرية، حين أعود سأخبر والدكِ بانفصالنا، و ربما....

ودّ بتلعثم:

-ربما ماذا؟

تنهد قبل أن يكمل:

-و ربما تشـتاقين ليّ و تقبلي بيّ زوجًا، الخيار أمامكِ و أعدكِ لن تري وجهي في الحارة.

أنهـى المكالمـة، ظلـت ودّ تبكـي حتـى تورمت عيناهـا و جفت دموعها.

ألقى حمزة بالهاتف، وضع يده على قلبه ثم قال:

-لـمَ ورطنـي معها، ألـم تكن تكرهها ما لك اليـوم لا تقوى على الفراق؟

أنا أغرق في بحر حبها رغم كوني سباح ماهر.

❖ ❖ ❖

كانت قمر تجلس في حديقة المنزل حين أقبلت عليها شهد، جلست بجوارها و قالت:

-أريد التحدث معكِ يا عمتي.

-خير، ماذا تريدين.

-كرم.

تغيرت ملامح قمر و أصفر وجهها، قالت بتلعثم:

-ماذا تريدين؟

-أنتِ متزوجة من رجل يدعى كرم؟

دمعت عيناها و هي تقول:

-أنا أرملته.

-أنتِ تزوجتِ؟

-ما دمتِ قد سألتِ عن كرم، فأنتِ قابلتي (إسماعيل) و تحدثتِ معه.

-نعم، لقد تحدثت معه، و الآن أخبريني حكايتكِ.

-بعد أن جئت إلى سوهاج، و بعد زفاف والدكِ، خطبني رجل من عائلة ثرية، عُقد قراننا بعدها بأشهر، بعد العقد بساعة أطلق رجل عليه النار، فأخيه كان قد قتل بن ذاك الرجل.

كل تلك الأعوام و انا أرملة، لم تأتني فرصة زواج بعدها، و كنت لا أعرف أين (إسماعيل) ليُنقذني.

دمعت عينا شهد و هي تقول:

-لمَ كل هذا؟ إن (إسماعيل) لم يتزوج، لازال يحبكِ.

قالت بصوتٍ باكي:

-(إسماعيل)! أ يقبل به أبي بعد كل تلك الأعوام، أنه القدر، و لا أحد يمكنه تغييره.

-لو جاء تقبلين به؟

- أقبل به!

تنهدت قبل أن تكمل:

-أ يأتي بعد كل هذا؟

-نعم و لمَ لا و روحه متصلة بروحكِ؟

- يا ليته يأتي.

❖ ❖ ❖

اتصل حمزة ب(محمود)، طلب منه أن يسافر معهم إلى الأسكندرية، قَبل (محمود).

أخذ (محمود) يبحث عن حقيبة سفر قديمة ليضع بها بعض الملابس التي سيحتاجها فلم يجدها، و لما سأل أمه عليها أخبرته أنها تحت السرير.

وجدها، حين فتحها وجد بها صندوق، فتحه، فوجد به الكثير من الدفاتر، أخذ يقلبها بين يديه، فتح أحدهم، فوجد مكتوب بأول صفحة فيه.

«إليه»

ما كنت أظنك قريب من روحي لتلك الدرجة، ظننتك مجرد صديق، و لكن حين رحلت فقدتُ شهيتي و شغفي، أصبحت فتاة لا أعرفها، أخذت قراري و إنتقبتُ، لم أستطع تحمل فكرة أن غيرك ينظر لي، حين تعود و نتزوج لن يراني غيرك، لقد أحببتك، لا أدري

كيف لكنها القلوب يا (محمود)، ليس لنا عليها سلطان.

أنتظرك و بشدة عُد إليّ و أعد لي روحي.

شعر (محمود) بدوار يضرب رأسه حين رأى اسمه بين طيات الورق، زاد الطين بلة حين رأى اسمها بأخر الصفحة.

جلس على الأرض لا يستوعب شيء، إن من كتب هذا الكلام طفلته التي حملها بين يديه يوم ولدت، تقع بحبه!

قال بصوت خافت:

لمَ أحببتِ يا صغيرتي، ما الحب إلا داء يُصيب الأفئدة، و أنتِ صغيرة ضعيفة لن تتحملي.

لمَ جعلتني أنا يا (نور) سبب ألمكِ و شقائكِ.

خرج من غرفته بحث بعينيه عن أمه، وجدها تجلس على الأريكة و بين يدها مصحف.

قال بهدوء مصطنع:

-كنتِ تعلمين أن (نور) تُحبني؟

وضعت (عائش)ة المصحف جانبًا و قالت:

-نعم ، كيف عرفت.

- وجدتُ دفتر مذكراتها ، أين كنتِ حين حدث هذا الهراء؟

قالت بهدوء:

كنت بجوارها حين حاولت الانتحار.

قال بفزع:

-حاولت الانتحار! متى؟

-بعد سفركَ بأسبوع، تعلم أننا لم نكن لنقدر على منعها ، لا أحد يعلم بحبها لك سوانا ، أنت تحبها؟

-قال في صيحة مكتومة:

-أحبها أنها طفلة!

-و الطفلة كبرت يا (محمود)، كبرتْ و أحبتك، أنت لا ترى أنها ما عادت طفلتك، و لن تفعل ستظل تراها طفلتك، كما ستظل تُحبك.

- لا أريدها أن تتألم يا أمي.

-تزوجها يا (محمود)، تزوج من تحبك فتعوضكَ عن أعوامك التي مرت هباءً منثورًا.

-أتزوج طفلة!

-طفلة في العشرين من عمرها! أنها ابنة خالك و نعرفها جيدًا.

-سأسفر الأسكندرية غدًا و حين أعود اكون قد وجدتُ حل.

❖ ❖ ❖

كان وليد يجلس على الشاطئ حين أتصل به (إسماعيل)، نظر وليد إلى شاشة هاتفه، ثم قال بتأفف:

ماذا تريد يا (إسماعيل)؟

(إسماعيل):

-و ما الذي سأريده منك أيها الأحمق، خديجة حبلى.

وليد بفرحة ممزوجة بدهشة:

حُبلى! منذ متى؟

-علمنا من شهر، أين أنت؟

-أنا في شرم الشيخ مع مريم.

قال (إسماعيل) بتقزز:

-أ هي تلك العاهرة التي خُنت ابنة أختي معها؟

وليد بضيق:

-صارت زوجتي الآن، فلا داعي لمثل هذا الكلام.

(إسماعيل) ساخرًا:

-زوجتك، غدًا ترى ما ستفعله بك.

أغلق (إسماعيل) بوجه وليد، تذكر حين جاءه وليد باكيًا يشكو رفض يوسف له.

وليد بحزن بالغ:

-أنا أحبها يا خالي من أعماق قلبي، لا أدري لمَ يرفضني الإمام.

-أسمع يا وليد، إن وافق الإمام تصونها، و لا ترى في الوجود امرأة سواها؟

-أنا لا ارى سواها.

أقنع (إسماعيل) الإمام، تزوج وليد و خديجة، عاشا بسلام أو بمعنى أوضح هذا ما أظهرته خديجة.

أسوء ما قد يفعله المرء أن يخرب قلبًا عامرًا به.

أتصلت شهد ب(إسماعيل)، أعتدل في جلسته لما رأى أسمها على شاشة هاتفه، قال بلهفة جلية:

-أهنالك جديد؟

ضحكت شهد، ثم قالت:

-لم تُلقي عليّ التحية حتى.

-كيف حالك؟ و الآن اخبريني عن حالها هي.

-أنا بخير، و عمتي أرملة.

(إسماعيل) بدهشة:

مات كرم!

شهد مؤكدة:

بعد العقد بساعة.

(إسماعيل) متلعثمًا:

-ألا زالت تحبني؟

-أتمزح معي؟!

-لم أفهمكِ؟

-أنها تتمنى لو تعود فتراك، لينبض قلبها.

-سأتي غدًا لا تخبري أحد.

-لا تقلقك يا صديقي.

-أخبريني عنوان المنزل.

أخبرته عنوان منزلها و أغلقت الخط، تريث ثم قال بألم:

لقد أشتقت لكِ، و أخيرًا لقاء قريب.

❖ ❖ ❖

دخل مصطفى المسجد، سار بإتجاه الإمام ثم جلس قبالته، أغلق الإمام المصحف و وضعه جانبًا، قال باسمًا:

-كيف حالك يا مصطفى؟

-بخير يا إمام و للّه الحمد.

صمت مصطفى عدة دقائق، فعلم الإمام أنه يريد ان يقول شيء ما، ابتسم ثم قال:

-ماذا تريد يا بني؟

-كيف عرفت أنني أريد شيء؟

-أنت لست تلميذي فحسب، أنت ابني، ابتسم مصطفى ثم قال في خجل:

- لقد وقعت بالحب يا شيخي، فما الدواء؟

- أما أن تطرق بابها أو تتركها و شأنها.

- هلا طرقت الباب معي؟

-أطرق يا بني و لمَ لا أفعل، لكن من هي؟

-زهرة ابنة عمي أسامة علي الدين.

-فتاة طيبة، كانت تحفظ القرآن عند زوجتي في صغرها.

-رأيتها أول مرة هناك، و وقعت بحبها و لا زلت احبها من يومها.

-غدًا أتحدث مع أبيها بإذن اللّٰه.

-سأسافر غدًا مع حمزة و (محمود)، أخبرني حين تعلم بردهم.

-أعادك اللّٰه سالمًا يا بُني.

❖ ❖ ❖

وصلت منيرة و أشرف إلى منزل أسامة في الموعد المحدد، فتح لهما أسامة، جلسوا في غرفة الضيوف، بعد دقائق دخلت زهرة مرتدية فستانًا رماديًا و طرحة وردية، جلست مقابل أشرف الذي ظل يبص لها بشدة، ت(ورد)ت وجنتاها من نظراته الجريئة تلك.

قال أشرف:

متى الخطبة يا عم أسامة؟

قال أسامة:

ثلاثاء الأسبوع القادم، بإذن اللّٰه.

بعد أن غادروا جلست زهرة تبكي قلبها، لم تحب احد غير مصطفى، حبيب طفولتها، و مراهقتها، مسحت دموعها، رفعت

رأسها إلى السماء ثم قالت:

-يـا اللّٰه يـا من قلبي بين أصبعين من أصابعـك، ثبت قلبي على ما تحـب و ترضـى، اللهم قربني من كل خيـر و أبعدني يا اللّٰه عن كل شر.

ذهب أسامة لصلاة العشاء، بعد الصلاة، أستوقفه الإمام قائلًا:

-حاج أسامة، كيف حالك؟

قال أسامة بضجر:

-بخير، ماذا تريد؟

تنحنح الإمام قبل أن يقول:

-مصطفى حسين تلميذي يريد الزواج بابنتك زهرة.

قال أسامة بتعالٍ:

-لكن خطبتها الثلاثاء القادم.

الإمام بدهشة:

خُطبت! لمن.

رد أسامة بنبرته المتعالية تلك:

-خُطبت لأشرف بن يحيى النجار.

ترك أسامة الإمام وسط دهشته و رحل.

❖ ❖ ❖

ذهب (إسـماعيل) إلى سـوهاج من دون ان يخبر أخته بأي شـيء، كان يقـف في حديقـة المنزل حين رأها سـالم، جحظت عيناه وظن أنه يتوهم، فقال غير مصدق:

-(إسماعيل)!

ألتفت كُلًا من قمر و أبيها و شهد إلى البوابة، وجدوا (إسماعيل) يقف و بين يده علبة، قال والد قمر:

-ما الذي جاء بك يا بن عمر؟

قال (إسماعيل) في نبرة ثابتة:

-جئت أطلبها منك.

-ما الذي ذكرك بها بعد كل تلك الأعوام؟

-أنا لم أنساها، لقد كنت أبحث عنها و ها أنا وجدتها.

نظر إبراهيم بإتجاه ابنته فوجد عينها تفيض دمعًا.

قال و هو ينظر لشهد:

هي من أخبرتك أ ليس كذلك؟

-أنا من سألها.

- ماذا تريد منا، أ لم ننتهي.

-لن ننتهي حتى تزوجها لي، أو تقتلني.

- ماذا عن زوجك و ولدك أ تتخلى عنهم؟

-أنا لم أتزوج و لن أتزوج إلا ببنتكَ.

-عنيد.

-زوجها لي أو أقتلني.

قال إبراهيم في صرامة:

-ابتعد عنا يا بن عمر.

- أرجوك لا تكسر فؤادي مرة أخرى.

إبراهيم بصوته الجهوري:

لولا أني كبرت و صرتُ شيخ؛ لكنتُ قتلتك بأرضك.

صاح إسماعيل في و جه الشيخ:

أنـت رجل أناني، تريدها أن تموت بجوارك، أما كفاك كل تلك الأعوام التي عذبتها فيها؟

لقـد ضاعا عمرينا بسـب عنادك و غطرسـتك، رحم اللّٰه محمد و لكـن أختـي بريئة مـن دمه براءة الذئـب من دم بن يعقـوب، لي ثلاثة عشـر عـام أحياهـا وحيد، أرى من في سـني يتزوجـوا و الأصغر مني ينجبـوا، و أنا وحيـد، لقد دفنتَ قلبي بيديك حيـن زوجتها لغيري أيا ليتك قتلتني يومها.

انتحبت قمر، نظر إليها والدها قبل أن يقول:

أتحبينه؟

لم تنطق.

قال إسماعي و النيران مستعرة في صدره:

قمر، إما انا او والدكِ...

أردف:

أخترته هو بالماضي و تخليتِ عني، اليوم إن لم تختاريني لن أقوى على العيش يومًا أخر.

رفعت قمر رأسها، نظرت لإسماعيل بأسى قبل أن تقول:

-وفقك اللّٰه يا إسماعيل، أختار أبي.

صُـدم إسـماعيل مما سـمعه، ظـل صامتًـا لبرهة قبـل ان يترنح و يسقط أرضًا.

صرخة قمر باسمه و اقتربت منه، أخذاه سالم و قمر إلى المشفى.

جلسـت قمر على كرسي أمام الغرفة، وضعت رأسها بين كفيها و راحت تبكـي، اقترب اخوها منها قائلًا:

سيكون بخير، لا تقلقي.

-لا سامح الله أباك....

-أنه أبوك أيضًا، أذهبِ مع إسماعيل و لا تعودي مرة أخرى عيشي حياتكِ يا أختي، يكفي ما ضاع من العمر، لا تموتي مرتين.

❖ ❖ ❖

عاد سالم و أخته من المشفى فوجدا والدهما يجلس في الحديقة، نظر إليهما و كأنه يصرح بفشله في تربيتهما، ثم قال:

سمحت لكما بأن تأخذاه إلى المشفى، لكنني لا أقبل بأكثر من ذلك، لا أريد سماع اسمه في هذا البيت، أنه مات اليوم كما مات ابني من قبل.

خرجت قمر عن صمتها:

ماذا بك؟

أنت قتلتني معه ألا تلحظ؟ ضيعت سنين عمري هباءً، غزى البياض سواد شعري، شابت روحي الشابة، أنت لم تتقبل موت محمد فأصبحت تقول أن رفض ورد هو سبب موته، اليوم أقول تلك الكلمات الواقفة بحلقي منذ زمن، أنا أحب إسماعيل و سنتزوج شئت أم أبيت، كم أتمنى أن ترضى كي لا أصير عاصية لك بعد أن هرمت.

دخل أبناء إبراهيم المنزل و بقى هو وحيد شريد، أخذ يفكر في الأمر بعقلانية، فأما أن يبقى وحيد، و أما يقبل بإسماعيل زوجًا لبنته فيظلان يدعوان له بعد مماته.

أتخذ قراره، في الصباح أستفاق إسماعيل فوجد قمر تجلس على كرسي قريب منه، ابتسم، ظل يتأملها حتى لاحظته، صرخت بفرح:

إسماعيل! الحمد لله، كيف حالك الأن؟

-بخير، ما دمتِ بجواري فأنا بأحسن حال.

أمسكت بيده في خجل، نظرت إلى الأرض و هي تقول:

أتقبل بي زوجة لك؟

ضحك قائلًا:

من ذا الذي يرفض؟

-هيا إذن...

-و أبوكِ؟

-.....

-لازال رافض، حين خيرتك ما بيني و بينه ليلة أمس كنت مخطئ، سأتزوجك بعد أن يقبل أبوكِ.

-أنه لن يقبل هكذا.

دُق الباب فدخل إبراهيم، نظر لإسماعيل قبل أن يقول:

إذا تزوجتها لن تجعلها تكرهني؟

نظر الحبيبان إلى بعضهما البعض، ثم قال إسماعيل:

لن أفعل أبدًا، أقبل فقط.

-أقبل إذن.

عقد القران بعد أن خرج إسماعيل من المشفى بيومين.

❖ ❖ ❖

طُرق باب الإمام، ففتحت (نور).

قالت بدهشة:

-وليد!

-هل الإمام هنا؟

-نعم تفضل.

جلس وليد أمام يوسف، قال بعد صمته القصير:

-أخبرني خالي بحمل خديجة، و أنا أريد ردها إلي.

-أنا غير موافق، لكن الرأي رأيها هي.

صعد يوسف و اخبر خديجة بأمر وليد.

رفضت بشدة أن تعود، فعاد وليد إلى بيته و هو يحمل الخيبات فوق رأسه.

❖ ❖ ❖

كان يجلس كُلًا من سليم، حمزة، و مصطفى و (محمود)على الشاطئ، و كُلًا منهم يحمل من الهم ما شاء اللّه له ان يحمل.

بعد فترة عاد سليم و محمود إلى شقة والد حمزة، بينما بقى حمزة و مصطفى.

اتصلت ودّ بحمزة، نظر إلى الهاتف بلوعة، ثم أجاب:

جاءه نبرتها المتلعثمة تقول:

-متى ستعود؟

-لمَ؟

-خطبة زهرة بعد غد.

-فهمت، ظننتكِ أشتقتِ ليّ.

تدحرجت دمعة على وجنتها و هي تقول:

-متى تعود.

تنهد قبل أن يقول:

صباح الغد.

-أعادك اللّه سالمًا.

دمعت عينا حمزة عنوة فسأله (مصطفى):

-أأصابتك سهام الحب يا حمزة؟

رد و تلك المضغة التي بين ضلوعه مشتاقة لها:

-أصابتني في مقتل يا صاح.

-لم أركَ تبكي على امرأة من قبل، لمَ هي؟

تبسم قبل أن يجيب:

-شيء ما فيها يجعلني أنسى الدنيا بمن فيها.

-عصفت بك ريا ح العشق يا حمزة.

- عصفت بي أيما عصف.

بعد شراء الذهب جلس أشرف مع زهرة بأحد الأماكن العامة.

قال أشرف:

-انا لا أحبك، أنا متزوج.

تعجب أشرف من زهرة التي لم تحرك ساكنًا، اردف:

أنتِ لستِ سيئة انا أحب فتاة اخرى فحسب.

لم تنطق زهرة ببنت شفى، حملت حقيبتها و عدت إلى المنزل.

نظر أسامة لابنته الماثلة أمامه باستفهام، فنطقت بعد صمتها:

لم تفعلون بنا هذا؟

سألها:

-ماذا نفعل بكم؟

أحقًا لا تدري؟!

في البداية أجبرت ودّ على الزواج بحمزة المعروف بعلاقاته النسائية المتعددة، و من ثم ترفض مصطفى الذي أحب مذ طفولتي، لتزوجني بذاك الخرتيت المدعو أشرف، ماذا لو أخبرتك أن ذاك

الأبلـه يحب امـرأة أخرى، أنه مجبر مثلي على هذا الزواج، أتعلم ماذا قال؟

لقد قال: زواجي بك لا يمثل لي شيء، سوف لن أسامحك أبدًا.

أخذت تبكي و هي تقول:

لا سامحك اللّٰه على قلوبٍ كسرتها، و أفئدة هُجرت بسببك.

جلست على الأرض فجلس والدها إلى جوارها، ضمها إلى صدره قائلًا:

-سامحيني، إن كنت تحبين مصطفى سأزوجكِ به.

❖ ❖ ❖

علـم مصطفى بانفصال زهرة، فتقدم لخطبتها مرة أخرى، فوافق أسـامة على مضض بعد أن علم بموافقة زهرة، لم تطول فترة الخطبة فتزوجا بعدها بشهرين.

خـارج قاعـة الزفاف كانـت ود تقف بعيدًا ، اقتـرب حمزة منها و همس في أذنها:

تبدين جميلة

استدارت و ابتسمت له.

نظر حوله فلم يجد أحد، فقال:

-أنا أحبكِ يا ودّ، أ تحبينني؟

لم تقل شيء.

فقال حمزة بأسى:

-فهمت.

كاد يغادر لو لم تمسك يده.

قالت في خجل:

-لا ترحل أبق.

اقترب منها محاولًا تقبيلها ، فأبعدته في خجل قائلة :

-تهذب.

-أقسم لكِ أنا زوجكِ.

غادرت ودّ مسرعة.

ابتسم حمزة ، و نظر إلى السماء و كل خلية في جسده تحمد الله.

بعد زفاف زهرة بأسبوع حددوا موعد عُرس ودّ .

كانت ودّ جميلة في فستانها الأبيض كملاك هبط الأرض صدفة ، كانت السعادة بادية على وجهها هذه المرة ، أمسى الزفاف راقي للغاية ، لاحظ الجميع التغير الذي طرأ على حمزة ، انتهى الزفاف بسرعة ليلحقا بطائرتهما الذاهبة إلى دبي.

❖ ❖ ❖

دُق باب بيت الإمام ذات يوم ، فتح سليم فوجد خاله ممسكًا بيد امرأة.

فقال في فرحة :

-أنتِ خالة قمر؟

ابتسم (إسماعيل) قبل أن يدلف إلى الداخل.

رأت (ورد) قمر ، فعانقتها رحب الجميع ب(إسماعيل) و زوجه.

❖ ❖ ❖

بعد شهر بدأت الدراسة ، كانت (نور) تجلس على أحد المقاعد حين شعرت به يجلس جوارها. قال بصوته الذي لطالما عشقته :

-كيف حالكِ.

-بخير يا بن عمتي.

-(نور)، أنا أريد الزواج بكِ.

-ألتقطت أنفاسها قبل أن تقول:

-ليتك قلتها قبل شهرين لكنتُ الآن أطير فرحًا، ما فائدة أن يأتيك ما كنت ترغب بعد ما زهدت.

- منذ متى و مات حبي بقلبكِ.

- منذ أشفقت عليّ، مذ ترددت ما بيني و بين خطيبتك الأولى، منذ نصحتك عمتي بالزواج بي.

طأطأ رأسه و قد فهم أنها سمعته و أمه.

أردفت:

-قال لي أحدهم لا تتزوجي بتلك الطريقة، أتبع نصيحته يا صديقي، وجدت بغرفتك رواية تحكي عن معبد أنهدم فوق رؤوس عجائز القرية، لأنهم رفضوا تجديده، و أنت يا (محمود) أ تهدم معي المعبد أم ننتظر لينهدم فوق رؤوسنا؟

قال و قد فهم ما تعنيه:

-سأهدم يا طفلتي.

سافر (محمود)، لم يعارض أحد رفض (نور).

صار زواج إسماعيل بقمر حديث الحارة بأكملها، فرحت ورد لانتهاء شقاء أخيها كثيرًا.

أهدموا المعبد أيها الشباب، تحرروا من سلاسل العبودية، لم تعودوا اطفال ليتحكم أباءكم بحياتكم، أنتم لستم عبيد، و أعلموا أن بيع الرقيق صار محرم.

❖ ❖ ❖

تمت بحمد اللّٰه و دعاء أمي.